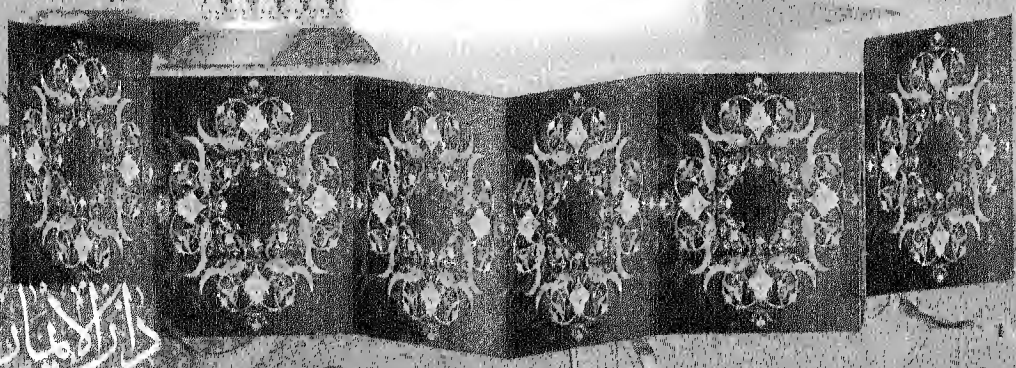


وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ

الاعتقادات

مُعَرَّبَةٌ

تأليف أم عبد الرحمن
سليحة مَرْعِي الْقَدْل



دار الإيمانيات
الطبع والنشر والتوزيع
الطبعة الأولى ٢٠٠٧

اهداءات ٢٠٠٢

دار الايمان

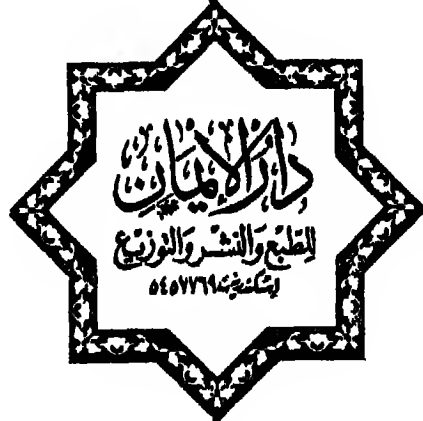
وَرَحْمَةُ الْخَالِقِ الْعَظِيمِ

الحج

تأليف أم عبد الرحمن
مأبحة مرعي العدل

دار الإحياء
للطباعة والنشر والتوزيع
الطبعة ٥١٥٧٦٩

بسم الله الرحمن الرحيم



حقوق الطبع محفوظة



دار الأمان
للطباعة والنشر والتوزيع
١٧ شارع خليل الغياث - مستشفى كامل - إسكندرية
تليفون وفاكس: ٥٤٥٧٢٩٠ - تليفون: ٥٤٥٦٤٩١
E-mail: dar_aleman@hotmail.com



مقدمة :

الحمد لله الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، فجعله شاهداً ومبشراً ونذيراً ، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ، وأنقذ به البشرية جمعاء حين « نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب » ^(١) ، فجاءت دعوته نوراً بدد الظلمات المتكاثفة ، إذ فتح الله به قلوباً غُلفاً ، وأسمع به أذاناً صُماً ، وأنار به أعيناً عمياً ، فأضاء به السبيل ، وأقام به الحجة والدليل ، وترك الناس بعده على المحجة البيضاء ، ليلها كنهارها ، لا يزيغ عنها إلا هالك ، ولا يناوئها إلا كل كفار عنيد .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، ربه فأحسن تربيته ، وأدبه فأحسن أدبه ، وجعل خلقه القرآن ، وأمر الناس أن يهتدوا بهديه ويحتذوا خطاه ، وأن يقتفوا أثره ، فاللهم صل عليه وعلى آله وأصحابه وأزواجه وتابعيه بإحسان إلى يوم الدين ... آمين .

أما بعد :

فقد وقفت على دياجير الحياة ، أعانى قسوة المشاعر الجافية ، ومرارة الأنا المدمرة ، التى تحطم فى طريقها من القيم والمثل الرفيعة ما تصبح الحياة بدونه جسداً أرضياً لا روح فيه ولا ارتقاء ، أبصر يمنة فتكسرنى الغلظة والفظاظة ، وأبصر يسرة فيرى عنى الإنحلال والإباحية ، وأنظر أمامى فلا أكاد أستوضح عبر سحابات اليأس الكثيفة ، تلك الرؤى المستقبلية لمصير البشرية البائسة

تجيش الأحزان بصدرى ، ويئن القلب تحت وطأة ضرباتها الموجهة ، فتنبثق من تلك الأنات ضراعات تطلب الخلاص ، تلتمس إليه طريق ، متى الخلاص

(١) رواء مسلم برقم (٢٨٦٥)

يأرب ومن أين المبتدى ؟ ، وإذ ببدء علوى يتردد فى القلب صداه ، ويترقرق فى العين نداه ﴿ فَفَرُّوا إِلَى اللَّهِ ﴾ [الذاريات : ٥٠] .

لمن النداء النورانى الرائع ؟ ﴿ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ [الذاريات : ٥٠] ، صوت محمد ﷺ الشفيق الحانى ، أنضر بشير وأرفق نذير ، يتهادى عبر أثير الزمن فيضاً نورانياً يهذى خطبا الحيارى ويجلو درب البائسين ..

تنفش ظلمة اليأس عن قلبى رويداً رويداً ، وتنساب فيه خيوط الفجر المشرق منذ ما يقرب من خمسة عشر قرناً من الزمان ، والذي عبثاً جاول أنصار الظلمات حجبه ولكن ... هيهات هيهات ... إذ يفتق نوره الساطع روضاً زاهراً يتعانق نداه مع نسيمات الفجر البكر ، فإذا به كحور العين متجدد البكارة ، متناهى الروعة ، متألق الشفافية ، تتهادى أنسامه العلوية إلى جداول النفس العطشى ، فترويهما ، وتغسل عنها حيرة القلب ، وتطيبه بشذى عبيرها العبق ، وتلفه بأهداب السكينة ، فتطير به بأجنحة ﴿ فَفَرُّوا إِلَى اللَّهِ ﴾ ، حيث تقف به على باب « النذير المبين » ، إذ من هنا يبدأ المسير فراراً من برائن المهلكات إلى الله تبارك وتعالى ، أعظم مبدئ وخير معيد .

من هنا نبدأ رحلة السباحة العلاجية فى رياض الأخلاق النبوية حيث صورة المؤمن الحق ، التى تخط ملامحها ريشة الأخلاق الحميدة ، كى تؤهله للعبودية الحققة لله تبارك وتعالى ... وها أنا أقترّب من باب الروضة العظيمة ... أتقدم فى خجل ، أتردد فى وجل ، غير أن نفسى الباحثة عن الخلاص تستحث خطاى إلى هذا العالم الجليل كى تتخفف من مرارة الغربة ، والبعد عن الله تبارك وتعالى ، فبه تتتابع الخطى إلى الله عز وجل ... ترائى أستطيع التحليق فى هذا العالم الجليل ؟ .

أدق الباب ، أستفتح بسم الله ، لعل الله تبارك وتعالى أن يفتح لى مغاليق الدرب ، ويمن عليّ من فضله ، بتنسيق باقة نور وخلاص من تلك الواحة

الغناء ، ويقيني أنني لست أهلاً لهذا ، إذ أن جهابذة العلم ، وعمالقة الأدب ، وفرسان الكلمة ، هم أهله ومفاتيح خزائنه ، غير أنني وإن كنت لا أجيد هذا الفن إلا أنني ربما أجيد تذوقه .

أدخل على استحياء ، واحة فيحاء ، أظلت البشرية من هجير اللانسانية الظالم ، وقومت انحرافات الفطرة ، فعالجت انتكاستها ، وأعادت للعقل الإنساني قيمته الحقيقة التي منحه الله تبارك وتعالى إياها .

الروضة عظيمة ، جد عظيمة ، فهي متشابكة الأغصان ، مترامية الأطراف مجموعها أخلاق رسول الله ﷺ المزكاة من رب العزة جلّت قدرته ، بقوله عز وجل : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤ ﴾ [القلم : ٤] .

كما أنها عنوان بعثته ﷺ ومضمون رسالته التي بُعث بها للعالمين « إنما بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق » ، وكانت أخلاقه ﷺ هي الترجمة العملية للقرآن الكريم كما وصفته أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها بقولها : « إن خُلُق رسول الله ﷺ كان القرآن » ^(١) .

أما مفردات تلك الأخلاق فهي أعظم من أن تحصى ، إذ كل فضيلة عُرِفَت فهي له فضيلة ، كيف لا ؟ وقد « اصطفاه الله من أكرم دوحه ، وتعهده في طفولته وشبابه ، إلى أن اختاره ليكون مبشراً ونذيراً ، فرباه أشرف تربية وأدبه أحسن تأديب » ^(٢) .

فكان كما قال ابن روجه رحمته الله :

لو لم تكن فيه آيات مبينة كانت بديهته تنبئك بالخبر

(١) رواه مسلم برقمه (٧٤٦) .

(٢) من أخلاق السيّد ﷺ ، د / أحمد الحرفي

فقد جمع كل صفات الكمال البشرى حتى لقبته قريش قبل البعثة بالصادق الأمين ، وكانت تلك الصفات الرائعة هي سبب يقين خديجة أم المؤمنين رضى الله عنها بصدقه ، حين أحبرها خبر جبريل عليه السلام ، إذ أتاه فى الغار ، فكان أول ما قالت : « والله ما يخزيك الله أبداً » ، أصدرت حكمها لا عن تعصب لزوجها ، أو تملق له ، وإنما عن علم ويقين ، فعددت حيثيات حكمها حيث قالت : « والله ما يخزيك الله أبداً ، إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق » (١) .

يا لها من أخلاق رائعة ، جعلت منه ﷺ شخصية لا تبارى ، أهدت صاحبها لحمل أمانة الدعوة والقيام بحقها ، فكان حقاً أمين الأرض على رسالة السماء .

﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [الأحزاب : ٥٦] .

إن أخلاقاً رائعة كهذه لجديرة بأن تفتح أكمال العقول فتنسب فيضاً نورانياً يضيء الأرواح ويحيى القلوب ، وكلما تقادم بها الزمن لم تزد مع الأيام إلا تألقاً وسناً ، وكلما أبحرت فيها الأفهام ، انسابت فى الأقلام لألاء وضاء ، فكانت تاريخاً ثرياً للمؤرخ الصدوق ، وزاداً فقهياً لكل فقيه ورع ، وعمقاً مستنيراً لكل مفكر أمين ، وسحر بيان وروعة بنيان لكل أديب أريب ، وأجنحة تخلق فى سماء الروعة والإبداع لكل شاعر تقى ، ومقومات الزعامة وحسن التدبير لكل قائد مغوار ، وعلم الأولين والآخرين لكل عالم فذ ، ودعائم للتربية المثمرة لكل مربٍ فاضل ، وينبوع الحكمة الذى لا ينضب لكل حكيم لبيب ، ومارة هدى

(١) رواه البخارى ، باب كيف كان بدء الوحى

ودليل رشاد لكل سائر إلى الله عز وجل ، وطوق نجاة لكل معاصر يأمل في الخلاص ، كما يجد فيها البسطاء ما يكفل لهم كرامة العيش ويقر لهم بحق الحياة .

وقد أطمعنى فى انتظام قلادة بديعة الفرائد من هذه الأزهار الثمينة الرقيقة ، التى تستمد جمالها من تعهد الله سبحانه وتعالى لها ، وإحسانه بها ، أن الأمة الإسلامية - والله الحمد والمن - فى صحوة علمية مبشرة بكل خير ، غير أن الصحوه الأخلاقية لم تنزل فى رقود ، وتحتاج إلى إيقاظها وإزاحة العلل عنها بعدما أصابها العطب المادى ، وطغت عليها الدنيا فأصبحت موجهة لتصرفاتنا وتعاملاتنا الشخصية والاجتماعية .

ولهذا كانت تلك الجولة فى روضة أخلاق رسولنا الكريم ﷺ محاولة - بقدر طاقتى المحدودة - لتذكير المسلمين بها علّ الأمة تستفيق وتحاول اللحاق بالركب الطيب المبارك .

ولعلمنى أحوج الناس إلى تلك التذكرة ، فاللهم خلّقنا بأخلاق رسولك الكريم ... أمين

ولعلمنى لا أدعى الإحاطة - فى تطوافى هذا - بكل ما فى واحدة أخلاق رسول الله ﷺ من أخلاقيات ، إنما طوّفت حول بعض المعانى لمجموعة من أخلاقه ﷺ مثل : الرحمة ، الحلم ، التواضع ، الحياء ، الصدق والأمانة ، الشجاعة ، الوفاء ، الكرم ، الإيثار ، الزهد .

وموعدنا فى هذا الكتاب - إن شاء الله تعالى - مع خلق الرحمة وما يحمله فى طياته من أنبل المشاعر وأرق السلوكيات .

وقائدى فى تلك المسيرة المباركة ، هو حديث رسول الله ﷺ إذ هو أساس البناء وعمده ، والحديث النبوى الشريف على كثرة ما يتضمن من أحكام

شرعيه ، ومسائل فقهية ، ودروس تربوية ، ولطائف لغوية ، إلا أنني أتناوله من الجانب الذى يتصل إتصلاً مباشراً بموضوع جولتى تلك .

أما الجوانب الأخرى فلها أولوا التخصص كل فى مجاله ، وهم لها أكفاء . وأخيراً ...

فهذا جهد المقل ، ولأن الزاد قليل ، والعلم ضئيل ، فإني أسأل الله العظيم أن يمنحنى زاداً يبلغنى المسير ، فاللهم هبنا من علمك ، وانفعنا به ، ووفقنا لتبليغه ، كما أسأل الله تبارك وتعالى أن يقبل منى هذا العمل ، وأن يجعله خالصاً صواباً فإن صاحبه التوفيق والسداد ، فذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، وإن جانبه السداد !! فهذا لعمر الله منى ومن الشيطان ، وعلى إخوانى النصح والإرشاد ، وعلى الله الاتكال ، وبه الاستعانة ، وإليه المرجع والمآل ، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ونبيه محمد وعلى آله وصحبه وسلم .



الباب الأول

الرحمة

[أ] بين يدي الباب .

الفصل الأول : رحمته ﷺ بالرجال .

المبحث الأول : فأقامني وعرف الذي بي .

المبحث الثاني : فظن أنا قد اشتقنا أهلنا ... وكان رفيقاً رحيماً .

المبحث الثالث : ففيهما فجاهد .

المبحث الرابع : كيف حال سعد بن عباد ؟

الفصل الثاني : رحمته ﷺ بالنساء .

المبحث الأول : رفقا بالقوارير .

المبحث الثاني : فهو خير لكما من خادم .

المبحث الثالث : وأى خير في العيش بعده .

المبحث الرابع : فوعدهن يوماً لقيهن فيه .

الفصل الثالث : رحمته ﷺ بالعصاة .

المبحث الأول : أطعمه أهلك ... أطعمه أهلك .

المبحث الثاني : لا تكونوا عون الشيطان على أخيك .

المبحث الثالث : أتشفع في حد من حدود الله !

الفصل الرابع : رحمته ﷺ بالأطفال .

- المبحث الأول : من لا يرحم لا يرحم .
- المبحث الثاني : اللهم ارحمهما فإني أرحمهما .
- المبحث الثالث : فجعل يمسح خدى أحدهم .
- المبحث الرابع : فأسمع بكاء الصبي فأتجاوز في صلاتي .
- الفصل الخامس : رحمته ﷺ بالخدم والعبيد .

- المبحث الأول : إخوانكم خولكم .
- المبحث الثاني : فإنه ولى علاجه .
- المبحث الثالث : اعلم أبا مسعود .
- المبحث الرابع : اللهم أكثر ماله وولده .
- الفصل السادس : رحمته ﷺ بغير المسلمين .

- المبحث الأول : إن شئت أن أطبق عليهم الأخشيين .
- المبحث الثاني : أطلقوا ثمامة .
- المبحث الثالث : نعم صلى أمك .
- المبحث الرابع : الحمد لله الذى أنقذه من النار .
- المبحث الخامس : وألبسه قميصه .

الفصل السابع : رحمته ﷺ بالحيوانات .

- المبحث الأول : حبستها حتى ماتت .
- المبحث الثاني : من فجع هذه بولدها ؟ .
- المبحث الثالث : فغفر لها بذلك .
- المبحث الرابع : فشكر الله له فغفر له .

الفصل الثامن : رحمته ﷺ بالجماد .

المبحث الأول : فجعلت تنن أنين الصبي .

المبحث الثاني : هذا جبل يحبنا ونحبه .

الفصل التاسع : رحماء في مدرسة الرسول ﷺ .

[أ] ثمرة التربية النبوية .

[ب] رحماء في مدرسة الرسول ﷺ .

المبحث الأول : لا تعجلوا صبيانكم عن الفطام .

المبحث الثاني : لا تسبهوه ولا تضربوه ، وإنما عظهوه وبصروه .

المبحث الثالث : ما كنت لأفعل ذلك .

المبحث الرابع : أقرؤا القسطاط حتى تطير فراخها .

المبحث الخامس : فضمه إلى نفسه .

المبحث السادس : يا ابن أخى : إن لى إليك حاجة .

بين يدي الكتاب :

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لَنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ (١٥٩) ﴾ [آل عمران : ١٥٩] .

كم أنت رحيم أيها الفجر المشرق بعد فظاظة ليل طويل ، كم هو شفيق نورك الذي يجلو ظلمة الدرب ، ويزيح الران عن القلوب ، ويجلو غشاوة العيون ، فإذا هي مبصرة بنور الله .

كم عطوف هو قلبك الذي يضم المرتجفين لينفض عنهم قسوة السقيع ، مما أطيب نذاك ينزل على الأرض الجذباء ، فتتهز وتربو ، وتنبت من كل رائع روضاً بهيجاً ، ما أروع روضك الحاني ، يضم اللائذين به من صحراء التيه ، وحذب الطريق ، وها أنا آوى إليه ، فما أدفاً المأوى وما أحنى الملاذ .

وأول ما يؤثر اللب ، ويبهز العين في تلك الروضة الغناء ، ويملاً على القلب شغافه هي دوحة الرحمة ، إذ أنها أكثر دفئاً ، وأنضر خضرة ، وأوفر ظلالاً ، وأنعم ملمساً ، يحتوى بها الإنسان ، فتهدد المشاعر وتنميها ، وتلثم الفكر فتنعشه ، وتحتضن القلب فتحييه .

« والرحمة مشتقة من الرحم ، وهي القرابة وأسبابها ، وأصلها جميعاً الرَّحِمُ ، وهو بيت الولد » ^(١) ، ولهذا فخلق بالإنسانية أن تتخلق بها ، إذ أصل الإنسانية رحم واحد ، وهو رحم حواء عليها السلام .

والرحمة كلمة نورانية ، حروفها جد رقيقة ، لكنها تحمل بين حناياها

(١) من أخلاق النبي ﷺ ، د / أحمد الحوفي

ما يعجز الفكر عن الإلمام به ، وما تعجز الكلمات عن التعبير عنه ، غير أن ظلالها تنقش في النفس معانٍ رائعة ، وأروعها استنقاذ المخلوقات من الهلكة ، إذ توجب على البشرية طعاماً للجائع ، ولباساً للعاري ، وحصانة للضعيف ، ووقاراً للكبير ، وشفقة على الصغير ، وصونا لماء الوجه ، واحتراماً لإنسانية الإنسان ، ورقفاً بكل مخلوقات الله .

فهى رحم يتخلق فيها المجتمع الإنسانى ، حتى يصبح تام الخلقة مكتمل البنيان ، لهذا فالرحمة دعامة قوية فى بناء الفرد والمجتمع ، إذ تربي الفرد على أعلى مستوى من الانسانية ، وتربي المجتمع على قدسية التراحم والحنو والرأفة ، فالفرد من رحم المجتمع فى قرار مكين ، فله حق البنوة ومقتضياتها ، وللمجتمع على الفرد بر الأبوة ، وما تتطلبه من خفض الجناح والإحسان ، تلك هى الرحمة كما أرادها الله تبارك وتعالى .

إن فرداً من الله تبارك وتعالى عليه بنصيب وافر من الرحمة لهو قيمة فى نفسه ، نفيس فى معدنه ، راقية إنسانيته ، يتعدى خيره ليضم كل ما حوله من مخلوقات ، ومجتمع من الله تبارك وتعالى عليه بهذا القدر الوافر من الرحمة لهو مجتمع متعاطف ، متآلف النسيج ، قوى البنية ، مثالي في رفته وشفافيته وروحانيته ، وفرد يربى على ذلك المستوى الرفيع ، ومجتمع يصاغ تلك الصياغة الرائعة ، لا بد وأن يصنع على عين الله تبارك وتعالى ، إذ إليه منتهى صفات الكمال والجلال والجمال المطلقة ، فيهب فضله منها لمن يشاء .

وقد اقتبضت رحمة المطلقة - تباركت أسماؤه - أن تفيض على جميع مخلوقاته ليتراحموا فيما بينهم .

فأخذ كل منهم بنصيب حسب استعداد جهاز التلقى فيه ، فمستكثر ومقل ، ومنتفع ومعطى ، وكلما كان نصيب الإنسان منها أوفر ، إرتقى بإنسانيته ، فكان أرقى شعوراً ، وأكثر تواضعاً ، وأنبى خلقاً ، فيصبح أخفض

جناحاً وآمن غائلةً ، وأندى عيناً ، وأرحب صدرأ ، وأرجى لرحمة الله عز وجل ، ولهذا فقد خلق الله سبحانه وتعالى رسوله الكريم ﷺ بهذا الخلق العظيم ، فكانت رحمته نسيجاً في بنية شخصيته ﷺ ، بل خلصت إلى عظمه ونخاعه ، فكان بحق الرحمة المهداة للمخلوقات جميعاً ، إنسهم وجنهم ، طيرهم وحيوانهم ونباتهم ، بل وحتى للجملادات ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ (١٠٧) [الأنبياء : ١٠٧] .

ولا يمكن لموقف ولا لعدة مواقف أن تبين قدر ما من الله سبحانه وتعالى به على رسوله ﷺ من الرحمة ، إذ صاغه منها ، فكان عطاؤه رحمة ، ومنعة رحمة ، وكلامه رحمه ، وصمته رحمة ، وحرية رحمه ، وسلمه رحمه ، وكله رحمة ﷺ ..

مقام يطول البحث فيه ولا تدرك جوانبه ، لكن حسبنا من النجوم النيرات لألاءها ، ومن العبير قبساً من طيب نفحاته ، ومن النهر الفياض شربة هنيئة ، تطفي الظمأ ، وتجدد في القلب الحياة ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إذا صلى أحدكم الناس فليخفف ، فإن فيهم الضعيف والسقيم والكبير وإذا صلى لنفسه فليطول ما شاء » ^(١) .

الصلاة جنة الله في أرضه ، يغتسل فيها القلب من كل شائبة تعكر صفاءه ، ويلوذ بها الجسم من متاعب السعي وأثقال الحياة ، ويصل فيها صفاء ^٢الذهن منتهاه ، إذ تتصل فيها الروح بالخالق العظيم سبحانه وتعالى ، اتصالاً نورانياً تنفصل به عن كل ما هو أرضي معتم إذ تسعد بلقائه ، فتحظى منه بالمناجاة ، وتنهل من فيض عطائه ورحمته .

(١) البخارى باب إذا صلى لنفسه فليطول ما شاء ومسلم باب أمر الأئمة بتحفيف الصلاة .

لحظات جليلة المقام ، علوية النفحات ، جلالها الخشوع والخضوع ، وبهاؤها الخوف والرجاء ، تنبثق فيها رحمة تحتضن الكون الفسيح ، وتفيض على الضعيف والسقيم والكبير وذى الحاجة ممن يصلى خلفك يا عبد الله ، إذ رق عظمه ، وقل احتماله ، فلم يقو على طول المكث فى الصلاة ، لا تسترسل يا عبد الله ظنا منك أنك تسمو بالقوم إلى ملكوت الله سبحانه وتعالى ، فإذا مشقك عليهم تهوى بهم فى جب سحيق من الضجر والمعاناة ، وربما الإحجام عن صلاة الجماعة ، فتفسد من حيث أردت الإصلاح .

إن الرحمة يا قائد الركب إلى الله تجعلك - على قوتك - تعالى معاناة الضعيف فتحمل عنه ضعفه ، وتجعلك - على صحتك - تعاني سقم السقيم فتخفف ما استطعت من ألمه ، وتجعلك - على شبابه - تحمل عن الشيخ وطأة السنين ، وترحم أحماد الزمن فى الجسم الواهن ، فترفع عنه حرج المعاناة ، وقسوة الشيخوخة ، إذا ياعبد الله : خفف صلاتك بالناس من أجل هؤلاء الذين تحمل بهم الرحمة ، فتلك رحمتك بهم ، ثم صل ما شئت لنفسك طويلاً ، إذا انفردت بها تناجى بالإخلاص ربك ، وتدفع ظلم الرياء عن قلبك ، فتلك رحمتك بنفسك .

توجيه ملؤه الرحمة بالمؤمنين بك أيها الإمام الشقيق ، غير أنه من قبل رحمة بك أنت ، إذ الراحمون أجدر برحمة الله تبارك وتعالى . ولأن كان رسول الله ﷺ يدعو إلى التخلق بخلق الرحمة ، فإنه ﷺ كان القدوة العملية لأصحابه خاصة ، ولل بشرية عامة ، ذلك أنه لم يك ليخالف قوله عمله ، بل كان أسبقهم لكل خير يدعو إليه ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ (٢١) ﴿ [التوبة : ٢١] .

ومما يفت الكبد ، ويغص الحلق أن ترزأ الدعوة بقله من قوالين مبهرين يسوقون الخطب الرنانة ، والمواظب البليغة ، حتى يرسم لهم السامع فى مخيلته صورة تقترب من المثال ، بيد أن واقعهم العملى يهدم فى لحظة ما بنوه بملء

الأفق من الكلمات ، فيحدث في بعض النفوس الهشه انتكاسة منكرة ، إذ يظن هؤلاء أن الخلل في المنهج نفسه ، لا في الشخص الداعي إليه ، هؤلاء المفوهون هم أول من تسعر بهم النار يوم القيامة .

عن أسامة بن زيد رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « يُجاء بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار ، فتندلق أفتابه ، فيدور كما يدور الحمار برحاه ، فيجتمع أهل النار عليه فيقولون : يا فلان ! ما شأنك ؟ ألست كنت تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ؟ فيقول : كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه ، وأنهاكم عن المنكر وآتيه » ^(١) .

هؤلاء الذين خانهم العقل ، فخانوا العلم ، فاستحقوا إنكار الله سبحانه وتعالى عليهم ، وتأييبه لهم بقوله تعالى : ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٤٤) ﴾ [البقرة : ٤٤] .

فإن الله أيها الدعاة إلى الله ، الله الله في دين الله ، الله الله في أمة خير مخلق الله ، الله الله في أنفسكم ، فلکم الأسوة الحسنة في رسول الله ﷺ ، حيث كانت دعوته إلى كل خير سلوكاً قبل القول ، وعملاً قبل الأمر ، واجتناباً قبل النهي ، فكانت بصدق الجوارح وصدق اللهجة ، وصدق الجنان .

وما هو حين يدعو إلى خلق الرحمة ، فلهو الرؤوف الرحيم ، قد عمت رحمته ﷺ المؤمنين ، رجالاً ونساءً وأطفالاً ، أحراراً وأرقاء ، طائعين وعصاه ، فكان بحق كما وصفه الله تبارك وتعالى : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٢٨) ﴾ [التوبة : ١٢٨] .

بل تعدت رحمته ﷺ الإنسان إلى الحيوان والجماد ، بل إلى ما هو أدنى

(١) رواه مسلم برقم (١٩٠٥) .

من ذلك ، إلى غير المسلمين من الكفار والمشركين والمنافقين ، تصور هذا لنا جلياً سيرته العطرة ، التي يمتد عبقها إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، والتي نقلها لنا عدول أمناء ، هم صحابته الكرام رضى الله عنهم ، « وروى البخارى ومسلم والترمذى » عن أبى هريرة رضي الله عنه قال : « كنا مع النبي ﷺ في دعوة ، فرفع إليه الذارع - وكانت تعجبه - فنهس منها نهسه وقال : أنا سيد الناس يوم القيامة ، هل تدرون ثم ذاك ؟ يجمع الله الأولين والآخرين فى صعيد واحد ، فيبصرهم الناظر ويسمعهم الداعي ، وتدنو منهم الشمس ، فيبلغ الناس من الغم والكرب ما لا يطيقون ولا يحتملون ، فيقول الناس : ألا ترون إلى ما أنتم فيه ، إلى ما بلغكم ، ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكم ؟ فيقول بعض الناس لبعض : أبوكم آدم ، فيأتونه فيقولون : يا آدم : أنت أبو البشر ، خلقتك الله يده ، ونفخ فيك من روحه ، وأمر الملائكة فسجدوا لك ، وأسكنك الجنة ، ألا تشفع لنا إلى ربك ، ألا ترى ما نحن فيه وما بلغنا ؟ فقال : إني ربي غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ، ولا يغضب بعده مثله ، وإنه نهانى عن الشجرة فعصيت ، نفسي ، نفسي ، نفسي ، إذهبوا إلى غيرى ، إذهبوا إلى نوح ، فيأتون نوحاً ، فيقولون : يا نوح أنت أول الرسل إلى أهل الأرض ، وقد سماك الله عبداً شكوراً ، ألا ترى ما نحن فيه ؟ ألا ترى إلى ما بلغنا ؟ ألا تشفع لنا عند ربك ؟ فيقول : إن ربي غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ، ولن يغضب بعده مثله ، وإنه قد كان لى دعوة دعوت بها على قومي ، نفسي ، نفسي ، نفسي ، إذهبوا إلى غيرى ، إذهبوا إلى إبراهيم ، فيأتون إبراهيم فيقولون : أنت نبي الله وخليله من أهل الأرض ، اشفع لنا إلى ربك ، أما ترى إلى ما نحن فيه ، فيقول لهم : إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ، ولن يغضب بعده مثله ، وإنى كنت كذبت ثلاث كذبات ... فذكرها ... نفسي

نفسى ، نفسى ، اذهبوا إلى غيرى ، اذهبوا إلى موسى ، فيأتون موسى فيقولون : أنت رسول الله فضلك برسالاته وبكلامه على الناس ، اشفع لنا إلى ربك ، أما ترى ما نحن فيه ؟ فيقول : إن ربى قد غضب غضباً لم يغضب قبله مثله ، ولن يغضب بعده مثله ، وإنى قد قتلت نفساً لم أوامر بقتلها ، نفسى ، نفسى ، نفسى ، اذهبوا إلى غيرى ، اذهبوا إلى عيسى ، فيأتون عيسى ، فيقولون : يا عيسى أنت رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ، وكلمت الناس فى المهد ، اشفع لنا إلى ربك ، ألا ترى إلى ما نحن فيه ؟ فيقول عيسى : إن ربى قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ، ولن يغضب بعده مثله ، - ولم يذكر ذنباً - نفسى ، نفسى ، نفسى ، اذهبوا إلى غيرى ، اذهبوا إلى محمد ﷺ - وفى رواية - فيأتون ، فيقولون : يا محمد أنت رسول الله وخاتم الأنبياء ، قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، اشفع لنا إلى ربك ، ألا ترى إلى ما نحن فيه ؟ فأنطلق فأتى تحت العرش ، فأقع ساجداً لربى ، ثم يفتح الله عليّ من محامده وحسن الثناء عليه شيئاً لم يفتحه على أحد قبلى ، ثم يُقال : يا محمد إرفع رأسك ، سل تعطه ، واشفع تشفع ، فأرفع رأسى ، فأقول : أمتى يارب ، أمتى يارب ، أمتى يارب ، فيقال : يا محمد أدخل من أمتك من لا حساب عليهم من الباب الأيمن من أبواب الجنة ، وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب ، ثم قال : والذي نفسى بيده ، إن ما بين المصراعين من مصارع الجنة كما بين مكة وهجر ، أو كما بين مكة وبصرى ، وفى كتاب البخارى : كما بين مكة وحِمير^(١) .

فهذه رحمته بالناس جميعاً يوم الحساب بتعجيل الحساب ، وكذلك رحمته بأمتة فى شفاعته فى أهل الذنوب من أمتة ﷺ .

(١) القيامة الكبرى ، د / عمر سليمان الأشقر .

الفصل الأول

رحمته ﷺ بالرجال

- المبحث الأول : فأقامنى وعرف الذى بنى .
- المبحث الثانى : وطن أنا قد اشتفقنا أهلنا .
- المبحث الثالث : ففيهما فجاهد .
- المبحث الرابع : كيف حال سعد بن عباده .

الفصل الأول : رحمته ﷺ بالرجال

المبحث الأول « فأقامنى وعرف الذى بى » .

هذا هو أبو هريرة رضي الله عنه يكشف قليلاً عن خزانة نفائسه ، فإذا بها تفوح أريجاً يحيى القلوب ، ويصقل العقول ، وينير طريق السائرين إلى الله ، وها هي قطرة من فيض نداءه تقص علينا رائعة من روائع رسول الله ﷺ - وكل حياته رائعة - حيث يقول :

« أصابنى جهد شديد ، فلقيت عمر بن الخطاب ، فاستقرأته آية من كتاب الله ، فدخل داره ففتحها عليّ ، فمشيت غير بعيد ، فخررت لوجهى من الجهد والجوع ، فإذا رسول الله ﷺ قائم على رأسى فقال : يا أبا هريرة ، فقلت : لبيك يا رسول الله وسعديك ، فأخذ بيدي فأقامنى وعرف الذى بى ، فانطلق بى إلى رحله فأمر لى بعس من لبن ، فشربت منه ، ثم قال : عد فاشرب يا أبا هر ، فشربت ، ثم قال : عد ، فعدت فشربت حتى استوى بطنى فصار كالقدح » ^(١) .

بأبى أنت وأمى ونفسى التى بين جنبى حبيبى يا رسول الله ، أمة من المشاعر والرقّة ، عالم من المروءة ومكارم الأخلاق ، لم يكن فى حاجة أن يشه صاحب ألم شكواه ، بل يغوص بإحساسه المرهف فى أعماق النفوس ، فيترجم بذكائه

(١) أخرجه البخارى ، كتاب الأطلعة .

المتفرد ما يرسم على صفحات الوجوه ، ويحتضن بقلبه الحاني كل القلوب ،
فتبته لواعج الصدور ، وإن لم تنطق الألسنة .

وها هو أبو هريرة رضي الله عنه قد اعترض طريق عمر رضي الله عنه ، يستقرأه آية من
كتاب الله - ما هو بأقرأ لها منه - ولكن عساه يستشف من السؤال الذي سألته
أبو هريرة رضي الله عنه سؤاله الذي لم يسأل ، وأبت فطنة الفاروق على وفرتها ، إدراك
مطلب الرجل الحقيقي ، وأبت عفة أبي هريرة أن تفصح عن مقصده الحقيقي
الكامن بين طيات سؤاله ، ومضى الرجلان ، هذا لداره ، وذاك لجوعه ، وألمه ،
وضعفه .

مضى أبو هريرة رضي الله عنه خطوة ، أو خطوات ضعيفة مرتعده ، أبي عليه ألم
الجوع والجهد المضى بعدها ، فخر لوجهه جسداً منهك القوى مرتعد الأوصال ،
واذ بالعناية الإلهية تستنقذه من برائن ذلك الوحش الفاتك ، إنها الرحمة
المصاغة بشراً ربانياً ، إنه رسول الله ﷺ قائم على رأسه ، يرسل صوته الحاني
ليبعث الأمل في القلب المجهد الذي كادت تخبوه فيه الحياة .

يا أبا هريرة نبرات دافئة الجوانح ، ودودة الملمس ، ينسى المُنْعَى معها كل
ألم ومرارة ، وتنتعش الروح الذابلة بها رغم التصاق الجسد المنهك بالأرض ،
وتنطلق الفرحة من أعماق جُبٍ سحيق : « لبيك رسول الله وسعديك » ، بل
لبيك أنت يا أبا هريرة وسعديك ، فقد ظفرت ببغيتك التي ابتغيت ، وانحنى
العظمة الشامخة ﷺ في تواضع رحيم ليقبّل أبا هريرة رضي الله عنه .

ومن لها غير رسول الله ﷺ ، الذي أحسّ ألم أبي هريرة ، وترجم ما ارتسم
في عينيه ، فجنبه مؤنة السؤال ، وذل الرجاء ، فانطلق به إلى رحله ، وأمر له
بإناء من لبن ، وشرب الرجل ما يطفى لهيب الجوع ويخمد سعاره ، غير أن
أدبه قد حال دون استرساله في الشرب رغم حاجته إليه ، وما كان هذا ليخفى
على رسول الله ﷺ من أصحابه وهو الذي رباهم على عينه ، ودرس عوالم

نفسياتهم - فقال ملاطفاً : « عد فاشرب يا أبا هر » ... يا لها من مداعبة رقيقة .

ما أحلى أن يرخم الإنسان اسم صاحبه ، فينمو بينهما الود الذى يذيب الحواجز النفسية ، ويرفع الحرج ، وقد كانت هكذا تلك المداعبة الرقيقة ، ثم قال رسول الله ﷺ « عد » ، لم يعد للنداء اللفظى مكان ، بل هو الحديث الوجدانى المباشر ، وما كان لقلب أبى هريرة رضى الله عنه إلا أن يسعد بالرحمة المناسبة من قلب رسول الله ﷺ فشرب الثالثة حتى استوى بطنه إيداناً بالإكتفاء !! .

إن منتهى الكفاية عند الصحابة الكرام رضى الله عنهم هو استواء البطن لا بروزها وتشحمها ، فهم ما عرفوا يوماً البطن والبشم ، ورد أبو هريرة رضى الله عنه بجوعه ووهنه ومرارة نفسه ، وصدر برية وقوته وطيب خاطره ، ومزیداً من الحب لرسول الله ﷺ ، ملك عليه شغاف قلبه ، وكل خلية من خلاياه التى انتعشب بعد ذبول وصحت بعد سقم .

هذه هى الرحمة النبوية الدافئة ، وتلك ثمارها النظرة الغضة الرائعة ، وتلك ظلالها الحانية الرحيمة ، فهل من مستظل ، وهل من مؤتس ؟ .

وفتى خلا من ماله	ومن المروءة غير خيال
أعطاك قبل سؤاله	فكفاك مكروه السؤال (١)



المبحث الثاني

« فظن أنا قد اشتقنا أهلنا ... وكان رفيقاً رحيماً »

إن رسول الله ﷺ وهو بينى النفوس ، ويرتقى بالروح ، ليطوف بها فى آفاق الجنة ، لم يهمل متطلبات الجسد المادى ، وحاجاته الغريزية ، بل أقرها ، ثم هذبها ، وارتقى بها إلى أعلى مراتب الإنسانية الطاهرة النظيفة ، وكان ﷺ أحرص ما يكون على سكن النفوس ، ودفع المشاعر ، وصحة الأبدان ، ليحى الفرد حياة كريمة ، أسسها العفاف والسمو والترفع ، وليظل المجتمع نظيفاً طاهراً آمناً .

ورغم اهتمام رسول الله ﷺ بتربية جميع فئات المجتمع إلا أن اهتمامه بالشباب كان أوفر ، لما لدى الشباب من الطاقات والطموحات ، وكان اهتمامه ﷺ بتهديب رغبات الشباب أكد ، ذلك أن رغباته أكثر إلحاحاً ، وشهواته أسرع استشارة ، وجلده فى البعد عن الزوج والولد سرعان ما تذيبه حرارة الشوق إليهم ، وشدة الحاجة إلى دفع البيت وبسمة الوليد وعقب الأسرة .

ومعنا الآن قطرة ندى من فيض رحمته ﷺ ترسم لنا ملمحاً رائعاً من اهتمامه ﷺ بالشباب ورحمته بهم ، « عن أبى سليمان مالك بن الحويرث قال : أتينا رسول الله ﷺ ونحن شبيه متقاربون ، فأقمنا عنده عشرين ليلة ، فظن أنا قد اشتقنا أهلنا ، وسألنا عمن تركنا من أهلنا ، فأخبرناه ، وكان رفيقاً رحيماً فقال : ارجعوا إلى أهليكم فعلموهم ، وصلوا كما رأيتموني أصلى ، وإذا حضرت الصلاة ليؤذن لكم أحدكم ، ثم ليؤمكم أكبركم » ^(١) .

(١) صحيح البخارى ، باب رحمة الناس والبهائم ، كتاب الأدب .

باقعة زهور عطرة ، فى أوج التفتح والنضرة والعنفوان ، جاءت بكل حماساتها وطموحاتها ، وقد شقت بيداء الظلام ، وصولاً إلى فيض النور المنبثق فى أفق طيبة المباركة ، ثار الشباب على جاهليتهم وموروثاتهم الصدئة ، ومضوا إلى الحق تحذوهم الرغبة فى الخلاص المنعقد بيد رسول الله ﷺ ، جاءوا طائعين راغبين آملين فى سنا الحق ، ليزهقوا به ضلال الباطل الذى عاشوا به حياة أقرب إلى الموت .

جاءوا شبيهة متقاربين ، آمالهم واحدة ، آلامهم متقاربة ، وإرادتهم صادقة فى هدم كل ما هو جاهلي عفن ، وبناء كل ما هو بناء فاضل ، تركوا الأهل والولد ، والتجارات والعرض ، وجاءوا مؤمنين ، متعلمين مقتضيات الإيمان ، وأقاموا ينهلون من ينبوع الحكمة الذى لا ينضب ، ويستضيئون بنور الحق الذى لا يخبو ، ويخلقون فى أثير النبوة الربانى ، عشرون ليلة كانت أجمل ما فى حياتهم ، إذ عاشوا فى رحاب رسول الله ﷺ يرتوون من علمه ، ويتأدبون بأدبه ، ويستكثرون من خيره ، مغتبطة به قلوبهم ، سامية به أرواحهم ، غير أن شعوراً ما بدأ مع الوقت يتسرب على استحياء قلوبهم ثم يرتسم على صفحات أعينهم ، ثم يتوارى خجلاً خلف أجفانهم ، فلا يكاد يحسه من يخالطهم ، لكن رسول الله ﷺ قد أدرك ما يدور فى سراديب مشاعرهم ، وإن توارت خلف جدهم .

أقام الشبان عند رسول الله ﷺ عشرين ليلة ، هى فى قياس القلب المحب لحظة مضت أو تكاد ، غير أنها زمن طويل إذا قيس بميزان الغربة عن الأهل والشوق للقيامهم ، أدرك رسول الله ﷺ حقيقة الصراع بين رغبتهم فى البقاء معه ، وقوة الحنين للأهل والديار ، وكان لابد أن يحسم ذلك الصراع بطريقة تجمع لهم منفعة البقاء والرحيل معاً ، فبادر بسؤالهم فى ود بالغ ، وشفقة حانية عمن تركوا من خلفهم ، فتتابعوا يخبروه بشوق بالغ ، فبشوه لواجع

صدورهم وشواغل عقولهم : فكأننى بأحدهم يخبر عن تركه لزوجته العروس ، وآخر يصف ضعف أمه وقلة صبرها على فراقه ، وثالث يخبر عن طفله الذى ربما ولد الآن ، ورابع يذكر أباه المريض ومدى حاجته إليه ، وهكذا تتدافع الأخبار عن الأهل والديار فى شوق ولهفه ، وكان ﷺ رفيقاً رحيماً ، لهذا قال لهم : « ارجعوا » - غير راغب عنهم ، ولكن رحمة بهم وبمن خلفهم - .

عودوا راشدين ، تحذوكم مشاعركم الفياضة نحو ذويكم ، وتظلمكم عناية الله ، ويحرصكم إيمانكم الغض الرطيب ، ولا تشغلكم أموالكم وأولادكم عن أمور دينكم ، بل أقيموا الدين فى أهليكم و « صلوا كما رأيتمونى أصلى » غير مبدلين ولا محدثين ، ها أنتم أيها السعداء قد أصبحتم أصحاب رسالة ، وحاملى دعوة الله بتكليف من رسول الله ﷺ إلى أهليكم ، فخذوا الرسالة بحقها ، وقوموا عليها خير قيام ، واعلموا أن الصلاة لوقتها ، فارفعوا التكبير فى ربوع بلادكم ، ثم لا تتعالوا بعلمكم على أحد ، ولا تستأثروا بالفضل لأنفسكم ، واجمعوا الناس حولكم ، واهدوهم الخير الذى أهداكموه رسول الله ﷺ ، واحفظوا لكبيركم حق السنين عليكم .

عاد الشيبة إلى أهليهم راشدين موفقين ، جامعين لخيرى الدنيا والآخر ، فصلى اللهم وسلم على من أحاط الأسرة المسلمة برباط الله المقدس ، الذى لا تنفك عراه أبداً ، بل تقوى فى الله وتزداد .



المبحث الثالث ففيهما فجاهد

الجهاد ذروة سنام الدين ، مجد المسلمين وعزهم ، وجنات تفتح للمجاهدين أحضانها ، إذ الجنة تحت ظلال سيوفهم ، خيل الله المنطلقة بمشاعل الهدى والنور ، ليهدى بها الله عز وجل الأمم إليه - أو ترد عن الدين غوائل المتربصين به كل دائرة ، لتكون كلمة الذين كفروا السفلى ، وكلمة الله هي العليا .

وفي الجهاد إحدى الحسنين ، إما النصر والغنيمة والعزة والمنعة ، وإما الشهادة والجنة والشافعة للأهل والولد ، وفي كلي عز الإسلام ورفعة المسلمين .
ولإن كان رسول الله ﷺ قد أشفق من ديب البعد والإغتراب عن الأهل إلى مشاعر الشباب الوافد إليه ، ومعاناة من وراءهم من أهل وعشيرة في السلم ، فلربما في حال الحرب والجهاد ما يبرر بعد الرجل عن الأهل إنخراطاً في الزود عن حياض الدين وبناء مجد المسلمين ، غير أن رسول الله ﷺ لم يكن ليهمل تلك المشاعر عامة ، ومشاعر الأبوين خاصة - حتى في تلك الأوقات الحرجة - وذلك لحاجة الأبوين المادية والنفسية والصحية للأبناء .

تتجلى لنا تلك الحقيقة الرائعة عبر حديث ابن عمر رضي الله عنهما حيث يقول : « جاء رجل إلى النبي ﷺ يستأذنه في الجهاد ، فقال : أحى والدك ، قال : نعم ، قال : ففيهما فجاهد » ^(١) .

رسول الله ﷺ يدعو إلى الجهاد ، ويرغب فيه ، ويصف ما عند الله

(١) صحيح البخاري ، باب الجهاد بإذن الأبوين ، كتاب الجهاد والسير .

للمجاهدين من أجر ومشوبه ، ثم إنه كقائد للجيش المنطلق ، يجلو الظلام الجاثم فوق صدر البشرية ويعمل على كسر الأقفال الصدئة المنغلقة بها قلوب الكفرة والمشركين ، ليسرّه أن يزداد عدد الجيش وعدته - كسبب من أسباب النصر والتمكين - وانضمام جندي لهذا الجيش المبارك يثلج صدر القائد العظيم ، لا سيما والجندي جاء طائعاً ، راغباً فيما عند الله عز وجل ، مترفعاً عن زينة الحياة الدنيا مؤثراً رونق الحور العين ، على فتنة الحور الطين .

جاء الرجل بعلو همته ، وسمو غايته إلى القائد العظيم ﷺ يستأذنه في .
الجهاد ، وشعر رسول الله ﷺ أن وراء الرجل ما يؤرقه ، وأنه رغم تطلعه إلى السماء ، فإن شيئاً ما يجذبه إلى الأرض ... ترى ما هو ؟ ...

أهو المال ؟ ... فما عند الله خير وأبقى .

أهي الزوجة ؟ ... ففي الشهادة ثنتان وسبعون زوجة من الحور العين .

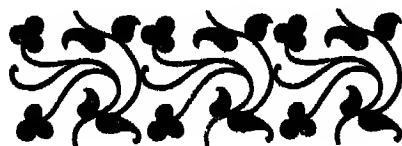
تراه الولد ؟ ... فما كان الله ليضيع ولده وهو التقى المجاهد الصادق .

السبب أقوى إذاً من تلك الأسباب - على قوتها - والمسئولية أثقل وأكد ، وهنا كان السؤال الذكي الرفيق : « أحي والداك » ، أصبت الحق يا من لا ينطق عن الهوى ، نعم يارسول الله ، وهنا أقره رسول الله ﷺ على الجهاد ، غير أنه عدّل وجهته « ففيهما فجاهد » .

جاهد سعى الحياة ونصبها من أجلهما ، جاهد ألم الفراق في قلبهما إن - أنت تركتهما - جاهد الفقر والخوف والضعف بغزوهم - إن أنت - فارقتهم - احملهما في قلبك ، كما يحملانك في أحشائهما ، اتعب يومك في تحصيل رزقهما ، كما تعبنا سنيهما في تحصيل رزقك ، اسهر ليلك لراحتهما ، كما أسهرا عمرهما لراحتك ، ارحم ضعفهما كما أنفقا قوتهما ليرتوى عودك ويشتد ، فكم أروياك نضارة شبابهما ، ولكم أشبعاك حصاد.

سعيهما ، وكم أراحاك بنصبهما ، ولطالما زرعاك أملا في دربهما ، وارتقباك تكبر شيئا فشيئا ، حتى إذا جاء وقت إثمارك كنت أنت يروضتهما التي يغتديان بشمارها ، ويتعشان برحيقها ، وينعمان بظلها ، إرجع إليهما ، وامسح عن قلوبهما بصمات الزمن وتعب السنين ، احمل عن كاهلهما ارتعادات الضعف وعجز الشيخوخة ، امح عن خاطرهما خوف الفراق ومرارة البعد عنهما .

ما أرحمك ، وما أرهف مشاعرك ، وما أنبل خلقك ، سيدى يارسول الله ، عاش بين أصحابه نورا فياضا يستقون منه شفافيتهم ، وحكمة بالغة يستمدون منها راحة عقولهم ، وواحة يلقون بين جنباتها متاعبهم وأثقالهم ، ونبعا لكل فضيلة وحسن خلق وروعة أدب ، فكان صفاء نفوسهم وعلو هممتهم ، وراحة ضميرهم ، ومعلم دربهم ، وخلاص روحهم ، ﷺ وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا .



المبحث الرابع كيف حال سعد بن عبادة ؟

خالط رسول الله ﷺ صحابته الكرام خير مخالطه ، وعاشرهم ألطف معاشره ، فأكلهم ، وجالسهم ، وأجاب دعوتهم ، وعاد مريضهم ، وشيع ميتهم ، واستغفر لمذنبهم ، وتجاوز عن مسيئتهم ، وبشر طائعهم ، خالطهم في حب فياض ، تواضع جم ، ورحمة بالغة ، وسخاء يد ، ورضا نفس ، وما هو ﷺ في موقف من أسمى مواقفه - وكل مواقفه أسمى - جمع فيه بين الحب والحنان ، والعظمة والتواضع ، والشفقة والرحمة ، ورقة القلب وفيض المشاعر ، - ما لا يمكن لقلم أن يعبر عنه - ^(١) غير إنه إحساس يسطع في جوانب النفس ، ويتدفق في شعابها أملاً في المحاولة .

فعن عبد الله بن عمر - رضى الله عنهما - قال : كنا جلوساً مع رسول الله ﷺ إذ جاء رجل من الأنصار فسلم عليه ثم أدبر الأنصارى ، فقال رسول الله ﷺ : « يا أخا الأنصار ، كيف حال سعد بن عبادة ؟ » ، فقال : صالح ، فقال رسول الله ﷺ : من يعود منكم ؟ ، فقام وقمنا معه ، ونحن بسبعة عشر ما علينا نعال ولا خفاف ولا قلانس ولا قمص ، نمشى في تلك البساخ حتى جئناه فاستأخر قومه من حوله حتى دنا رسول الله ﷺ وأصحابه الذين معه ، وفي رواية أخرى : « فبكى رسول الله ﷺ ، فلما رأى القوم بكاء رسول الله ﷺ بكوا فقال : « ألا تسمعون ؟ إن الله لا يعذب بدمع العين ولا بحزن القلب ، ولكن يعذب بهذا » - وأشار إلى لسانه - « أو يرحم » ^(١) .

أن يُلْغ صاحب الدعوة دعوته من فوق منبره فحسب ، ثم إنه بعد ذلك منزلاً عن القوم ، محتجب عن قضاياهم ، بعيد عن آلامهم وآمالهم ، ضائق صدره بهم ، متززع بضيق الوقت ، وأعباء الدعوة وثقل المسؤولية ، فتلك دعوة عقيم لا تجد صداها إلا في جوف صاحبها ؛ لأنه قد نأى بنفسه عن مشاعر الناس ، وأفسد حسن القول بسوء الفعل ، فلا أثمرت دعوته ، ولا نجت من إساءته ، فبئس الداعي هو ، وما أبعد عن روح الدعوة .

إن رسول الله ﷺ إمام الدعاة ، على ثقل مسؤولياته - كخاتم النبيين - فهو مبلغ الرسالة ، ومربي الأمة العظيمة ، وقائد الوفود إلى الله عز وجل ، يرسم ملامح الداعية الحق ، ويخط معالم شخصيته ، ويرسى مقومات نجاح الدعوة ، ويعلم الدعاة كيفية السمو بإنسانيتهم ، فتسمو بهم دعوتهم .

والصورة الرائعة الحية التي معنا الآن لرسول الله ﷺ وهو جالس مع أصحابه الكرام ، بكل ما توحى الصورة من التواضع والتبسط وحسن الصحبة ، ومجاذبة أطراف الحديث ، وتدارس العلم ، ومناقشة مختلف القضايا ، وإذ برجل من الأنصار ، فسلم ثم أدبر لسانه ، فناداه رسول الله ﷺ نداءً رقيقاً ، يفيض مودة وتواضعاً ورحمة « يا أخا الأنصار » ، يا له من نداء يجيبه القلب قبل اللسان ، وتسبح به الروح في ملكوت الإيمان ، « كيف سعد بن عبادة » ؟ ، وسعد بن عبادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رجل من أصحاب رسول الله ﷺ ، ألم به المرض ، فحبسه في داره ، طريح الفراش أسير الوهن ، اهتم رسول الله ﷺ لمرضه ، وتآلم لألمه ، وحمله في خاطره شغلاً ، وفي قلبه همماً ، ولم يدع الفرصة إذ واتته ليطمئن عليه ، فأجابه الرجل « صالح » ، والجواب كاف لمن أراد مجرد الإطمئنان ، غير أن حق صاحب في حس رسول الله ﷺ أعظم من مجرد السؤال عن بعد ، وإنما هو الزيارة والمواساة ، ومحاولة التخفيف بقدر المستطاع .

وكان سؤال ودود من رسول الله ﷺ يستبحث صحابته الكرام على زيارة المريض « من يعود منكم ؟ » ، إن سؤالاً بذلك الأدب الجم لا يمكن أن تكون إجابته إلا المسارعة إلى الإجابة ، قام رسول الله ﷺ أولاً ، بدأ بنفسه ليشحذ الهمم ، فقام معه بضعة عشر رجلاً ، لم يتباطأ منهم أحد ، قام القوم جميعاً ، ما عليهم نعال ، ولا خفاف تقى أرجلهم حرارة الرمال ووخز الحصى ، ما عليهم قلانس تقى رؤوسهم لهيب الشمس وشدة أذاها ، ولا قمص تحمل عن كواهلهم قسوة القيظ .

يتقدمهم رسول الله ﷺ على نفس حالتهم ، لم يتميز عليهم بشيء من لباس أو مركب ، وإنما تقدمهم إلى طريق سبخة شاقة المسير ، يسرها لهم نبل غايتهم في مواسة صاحبهم ، وحسن الأجر وجزيل المثوبة من الله عز وجل .

رأى رسول الله ﷺ صاحبه ، وقد هذه المرض ، وعصف بقواه ، ماذا يملك القلب الرحيم إزاء شراسة المرض وقد هدت قوى إنسان ، فخلفته طريق الفراش ، وقد كان بالأمس بالقرب معافاً ، عاملاً نشطاً ، إيجابى التفاعل ، واضح الأثر ؟ ، ماذا يملك رسول الله ﷺ إلا أن تتفجر في قلبه الرقيق عيون الحزن فتصب في عينه فيضاً منهمراً من حر البكاء ، بكى رسول الله ﷺ لمرض صاحبه ! بأبى وأمى وولدى ونفسى أنت يا رسول الله .

تبكى شفقة ورحمة لآلام الآخرين وأنت رسول الله ﷺ ، تبكى دموعاً لو ارتشفها قساة القلوب - عبر مسيرة البشرية كلها - لأذابت صخرية قلوبهم ، وحولتها أودية خصيبة ، نبتها الرحمة والشفقة والحنان ، تبكى يا رسول الله دموعاً طاهرة ، تنحدر في قلبي شفافية ، وفي وجداني مرارة وألماً ، فما بال وقعها على الصحابة الكرام رضى الله عنهم ، وقد رأوها رأى عين ، وعاشوها صدق مشاعر ؟ .

مشاعر نبيلة راقية ، وعاطفة فياضة رقيقة ، تنافى معنى الرجولة عند من يظنون أن الرجولة غلظة وفظاظة وجفاء مشاعر ، وحسبهم هذا الميزان المنتكس الظالم ، نعم ، بكى رسول الله ﷺ ، وأقر أصحابه على البكاء رحمة لصاحبهم ، بل وكافأهم عليه بتلك الجائزة العلمية القيّمة « ألا تسمعون » ؟ ، أنصتوا أيها الحزاني رغم حزنكم ، وتبصروا رغم دموعكم ، وافقهوا قولى برقة قلوبكم ، « إن الله لا يعذب بدمع العين ، ولا بحزن القلب » ، إذأ : أرسلوا عيونكم فياضة عندما تستدعيها الرحمة ، ورققوا قلوبكم بالتفاعل مع أحزان إخوانكم ، وعبروا عن مشاعرهم بما لا يغضب الله تبارك وتعالى ، وإياكم والمخاطرة بإطلاق اللسان بما قد يكون فيه هلاككم .

﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ۖ ﴾
رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مَبِيتَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا ۝ ١١ ﴾ [الطلاق : ١٠ ، ١١] .

صلى الله وسلم وبارك على أرحم قلب عرفته البشرية جمعاء ، قد أطل من بين دموعه ، فرأى أحزان البشرية ، فأشفق على أمته من تلك الأحزان ، فأرشدها كيف تهذب أحزانها ، وكيف تعبر عن حرّ مشاعرها ، بالأدب الذى ينبغى لله سبحانه وتعالى ، رضا بقضائه ، وتسليماً لمشيئته .



الفصل الثاني

رحمة ﷺ بالنساء

- المبحث الأول : رفقا بالقوارير .
- المبحث الثاني : فهو خير لكما من خادم .
- المبحث الثالث : وأى خير فى العيش بعده .
- المبحث الرابع : فوعدهن يوماً لقيهن فيه .

المبحث الأول رفقاً بالقوارير

من هي المرأة ؟ ...

إنها العالم العجيب الذي به كدر الحياة وصفوها ، هذه هي المرأة كما خلقها الله تبارك وتعالى ، وتلك هي قدراتها التي وهبها الله عز وجل ، فهي سكن وملاذ ، وفيض شعور ، وتوقد عاطفه ، وغل حريرى الملمس ، حديدى الوثاق ، فإن كانت صالحة فاضلة ، طيبة المنبت والمروى ، كان غلها التقى والرشاد ، والوقوف على حدود الله تبارك وتعالى ، فتسلك بمن ورائها طريق النور والفلاح .

« وما أصبغ الله على امرئ نعمة أعظم أثراً ولا أسنى خطراً ، ولا أجمع لشتات النعم ، ولا أجلب لنعم الحياة من المرأة الصالحة ، هي عدة فى الشدة ، وزينة فى الرخاء ، هي منار أمل الرجل ، منها يستمد ، وبها يستفيد ، وإليها يعود به ^(١) .

أما إن كانت على غير ذلك ، كان غلها شيطانى النزعة ، وخطاها مظلمة الدروب ، فضلت وأضلت ، وسافت أسراها إلى حب الضياع السحيق ، ومن هنا كانت المرأة « دعامة الكون ، لا يزال ناهضاً مكيناً ما نهضت به ، فإن هي وهنت دونه وتخاذلت عنه ، تهاوت عمدته وتصدعت جوانبه ^(٢) .

إذن « للمرأة من دقه الحس ، وقوة العاطفة ، وبعد الخيال فوق ما للرجل فهي لا تبرح الدهر بين خاطر متوثب ، ووجدان متأثر ، لا تكاد تسمع خبراً أو

(١) المرأة العربية فى جاهليتها وإسلامها .

(٢) المصدر السابق .

تلمح منظرًا ، أو تطيف بها ذكرى ، حتى ينال ذلك من أعماق نفسها وأسرار وجهها وشئون عينها ... مثل تلك الطبائع فى نفس المرأة إن وفقت إلى من يتعاهدها ويصلح نهجها ويزيل العوائق من دونها ، كانت سبيل الكمال المطلق ، والخير الصريح إلى الأم ، وإن منيت بمن يموه لها الباطل ، ويزين لها صفحة الشر ويجنبها طريق السداد ، انعكست آياتها ، وانتكست حالتها ، وهاجت الداء الدوى والشر العقام ، وإن هى تركت وأمرها ، وخلت وسبيلها ، كان شأنها كشأن دفائن الكنوز فى قفر من الأرض ، تتحول الأزمنة ، وتتبدل الأم وهى على حالها ، لا خير فيها ولا أثر لها ^(١) .

لهذا كان اهتمام الشرع الحنيف بكل أمور المرأة وحرصه عليها ، وتربته لها ، والتأكيد على خطرها ، ومدى تأثيرها سلباً وإيجاباً فى مصائر الأم ، من هنا كان تعهد رسول الله ﷺ لها بالتربية والتعليم والتوجيه والزود عن حقها ، ولأن كان رسول الله ﷺ رفيقاً رقيقاً رحيماً بالرجال ، فلهو بالنساء أرق وأرحم وأرفق ، وذلك أن المرأة بطبيعتها شديدة الحساسية ، سريعة الإنفعال ، زبقية المشاعر ، سهلة الإنكسار صعبة الإنجبار ، قلما يبرأ جرحها بسهولة ، لذا كان الرفق بها أليق ، والرحمة بها أوفق .

وهذا ما كان يدركه رسول الله ﷺ حق الإدراك ، فكان عظيم الرحمة بها ، حريصاً على مشاعرها أشد الحرص ، مدركاً طبيعة تكوينها ، متعاملاً معها من هذا المنطلق ، وها هو أنس بن مالك رضي الله عنه يميظ غطاء بوتفته قليلاً فتفوح شذا يرستم على وجنات الأفق ، صورة رائعة من صور رحمة ﷺ بالنساء فيقول : « أتى النبی ﷺ على بعض نسائه ، ومعهن أم سليم - وهى أم أنس - فقال : ويحك يا أنجشة ، رفقا بالقوارير » ^(٢) .

(١) المرأة العربية فى جاهليتها وإسلامها .

(٢) صحيح البخارى ، باب ما يجوز من الشعر والزجر والحداء ، كتاب الأدب

كان رسول الله ﷺ إذ هم بسفر يقرع بين روجاته ، فمن سعدت بفضل الله مهـن حرجت معه ، والآـن يصطحب رسول الله ﷺ فى إحدى رحلاته مباركـه بعض روجاته الطاهرات ، على رواحلـهن ، يحدو بهن أنجـشة الحبشى ، المـيـظ المـلامـح الداكن اللون ، الخشن الملمس ، غير أنه رقيق النبـرة ، شـفـيف المـشـاعر ، يحفظ الأشعار ويجيد العزف بها على أوتار القلوب ، قلبه قلب شاعر يرفرف بسحر القريض فى عالم علوى الآفاق ، ممتد رحيب ، وصوته عزف قيثار رقيق بديع

نجد أثرـجل من شاعريته وعدوبة بـرنه ، رفيفاً يطوى به طول الدروب ، ومعيداً على الحـداء ، وها هى الإبل تطرب له ، فتسقى خطاها على نغمات الصوت العذب الرقيق ، ولربما كاد الشعر حماسياً ، يبعث فى النفوس القوة والإقدام ، فتندفع الإبل سريعة الحركة ، حماسية الخطا ، مما قد يعود على ربات الهودج المباركـات بالإنزعاج والمـشـقة . ولربما كاد الشعر رقيقاً أنيقاً ، فتتمـايل الإبل تمايل الثمل النشـواء ، وتطرب الراكبات لركة الشعر وبديع الصور وإيقاع الخطى ، فينشغلن لبعض الوقت عن الذكر والتسبيح ، وهذا ما يأباه عليهن رسول الله ﷺ حرماً عليهن ، ولهذا فقد طلب من الحادى الترفق بالقوير

كيف إذا بمن يترك أهله أمام التلفار والفصائيات ليا نهار ، وكفى بها مصيبة لقتل الوقت ونقص الإيمان ٩ هـ يا أيها الدين امنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شديد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون (٢٠) هـ [التحريم ٦]

إن إحساس الزوج بزوجته ، وإدراكه لمنعطفات نفسيتها ، وارتسامها فى حسه قارورة رقيقة حس . ناعمة السبور . سفينة الوجدان ، سريعة الإنكسار .

ليجعله دائماً رقيقاً رقيقاً رحيماً بها ، حريصاً أشد الحرص على مشاعرها ، ملاطفاً لوجدانها ، ينسج من حبه وعطفه وخوفه عليها حصناً منيعاً ، يقيها ما يחדش كرامتها ، أو يؤلم مشاعرها ، فضلاً عما يحزنها ويؤرقها ، مجتهداً في إبعادها عما ينقص إيمانها أو يشغلها عن ربها ، والزوجة التي تستشعر من زوجها هذا الشعور ، وتنعم منه بتلك الرقة وهذا الحذب عليها ، لهى له الزوجة المحبة ، والصديقة الصدوقة ، والرفيقة المخلصة ، والأم الرؤم ، والأخت الحانية ، والإبنة البارة ، والأمة المطيعة ، والقوة التي تحذوا به دائماً نحو التقدم والنجاح ، والاستمرار والتألق والإرتقاء .

فهل من راغب فى كسب ود القوارير تأسياً بصاحب الرحمة البالغة والرقة الفياضة ، والنور المبين ﷺ .



المبحث الثانى فهو خير لكما من خادم

هكذا كان رسول الله ﷺ الزوج الغيور ، والرفيق الأمين الحنون ، أما الموقف الذى معنا الآن ، فهو فيه الأب الحانى الذى يعلمنا كيف تكون الأبوة الراقية

« عن أبى ليلى قال حدثنا عليّ أن فاطمة عليها السلام شكت ما تلقى من أثر الرحى ، فأثنى النبى ﷺ سبى ، فانطلقت فلم تجده ، فوجدت عائشة فأخبرتها ، فلما جاء النبى ﷺ أخبرته عائشة بمجى فاطمة فجاء النبى ﷺ إلينا ، وقد أخذنا مضاجعنا ، فذهبت لأقوم ، فقال على مكانكما فقعد بيننا حتى وجدت برد قدميه على صدرى ، وقال : « ألا أعلمكما خيراً مما سألتما ؟ إذا أخذتما مضاجعكما فكبرا أربعاً وثلاثين ، وسبحا ثلاث وثلاثين ، واحمدا ثلاث وثلاثين ، فهو خير لكما من خادم » ^(١)

يالبنتاب كسرى وقبصر ، وقد كن ينعمن بطيب العيش وصفو الحياة ، يتقبلن فيما هو أبعد من سجع الخيال من النعيم ، واللذة والرفاهية ، أكسيتهن الديباج الموشى بخيوط الذهب وثمر اللآلىء واليوافيت ، فرشهن بطائنهما من سندس واستبرق وحشوها ألطف أنواع الريش ، أكلهن وشربهن من أطيب ما جادت به الدنيا ، والتذ به المذاق ، قصورهن موشاة بالذهب والفضة ، عبدهن وإيمائهن تضح بهم القصور وتضيق بهم الطرقات ، شكواهن الفراغ والملال - على كثرة ما لديهم من أنواع اللهو واللذائذ - ولم لا وقد ملك أبأؤهر

الدنيا ، واستأثروا بخيراتها ونعمها ؟ .

لكن ملك القياصرة وإن عظم وامتد فإنه محدود بمدى ما وصلت إليه أيديهم من مكان ، وما ناقضت عنده أعمارهم من زمان ، وما أقصرها وإن طالت الأعمار ، وما أسرع انصرامها وإن اجتمعت لطلابها الدنيا .

أما فاطمة عليها السلام ، فبنت من ؟ وزوج من ؟ وأم من ؟ ، ما طبيعة ملكهم وما كُنه عروشهم ، وما لذائذ عيشهم ؟ ، إنها فاطمة البتول ، ريحانة أبيها ، وبضعته الغالية ، أما أبوها فهو محمد بن عبد الله ﷺ ، خير خلق الله ، وحبيبه ومصطفاه ، ومسك ختام النبوات والرسالات ، قائد الدنيا بآثرها إلى رحاب الله تبارك وتعالى ، وحامل مشعل حضارتها ؛ ومناطق ارتقائها وسموها ، أكله ولباسه : الخشن من الطعام والثياب ، فإن لم يكن ثم طعام فصيام ، فرشه الحصير ، ووسادته آدم حشوها ليف ، قصره مسجد أسس على التقوى من أول يوم فنبئت فيه أعظم الرجال ، عرش ملكه قلوب المؤمنين فى طول الدنيا وعرضها ، وزمان ملكه منذ بعثته ﷺ حتى يرث الله الأرض ومن عليها .

زوج من ؟ ... علي بن أبى طالب ﷺ ابن عم رسول الله ﷺ وربيبه ، أول صبي ارتشف نور الإسلام ، صاحب فراش رسول الله ﷺ ليلة الهجرة ، ومؤدى عنه أمانات قریش ، العالم الأديب الأريب التقى النقى الطاهر الورع ، الذى يحب الله ورسوله ، ويحبه الله ورسوله ، الخليفة الراشد ، العابد الزاهد ، الذى ارتضاه رسول الله ﷺ لبضعته وريحانته .

ثم من ؟ .. الحسن والحسين ، ريحانتا رسول الله ﷺ ، وعقبه من بعده ، سيدا شباب أهل الجنة ، هذه هى فاطمة الزهراء عليها السلام ، بقية رسول الله ﷺ من الأهل والولد ، فرحة يومه وبسمة غده ، هذه هى فاطمة الحسبية الشريفة ، العظيمة الأصل ، الطاهرة الفرع ، فكيف هى فى بيتها

وَاحِدَةُ الْخَلْقِ الْعَظِيمِ - الرَّحْمَةِ -

إنها المؤمنة القائمة بحق بيتها ، إذ تَقُمُ البيت ، وتخلب الشاة وتغسل الثوب ، وتهدهد الطفل ، وتمهد الفراش ، وتطهى الطعام ، وتقوم على حوائج الزوج والولد .

مشقة بالغة ، ثم هي بعد هذا كله تعمل ما هو أضنى وأشق ، إذ تطحن الشعير بالرحى لتصنع منه خبزها ، حتى أثرت الرحي في يدها الشريفة فألمتها أشد الإيلام .

سيدة نساء أهل الجنة تحيي هذه الحياة الشاقة ، وبنات كسرى وقيصر يرفلن في النعيم ، غير أن الأمور عند فاطمة عليها السلام كانت تقاس بمقياس الآخرة لا الدنيا ، ظلت تعمل صابرة محتسبة قانعة بحياتها ، لا تبغى خادماً وهي التي لو أبدت للصحابة الكرام رغبتها في خادماً ، لضاق عليها البيت من كثرة مجيبيها من الأشراف الأماجد ، الذين كانوا يبتدرون نخامة رسول الله ﷺ وبصاقه فيدلکوا به وجوههم تبرکاً وحباً وكرامة ، فكيف بخدمة ابنته الحبيبة ؟ ، إنها شرف الدهر ومكرمة الحياة .

ظلت فاطمة عليها السلام تقوم على بيتها خير قيام ، حتى كَلَّت يداها وخارت قواها ، فرأت أن من حقها الآن أن تطلب خادماً لا كإبنة القائد العظيم الذي له خمس الغنائم ، ولكن كمسلمة منهكة ، في حاجة إلى من يعينها على أمور بيتها ، ذهبت بكل ألمها وأملها وحياتها لتبث شكواها رسول الله ﷺ علها ترجع بخادم يحمل عنها مؤنة الرحي ، فقط الرحي .

ويعلم رسول الله ﷺ خبر فاطمة عليها السلام ، فيحمل ألمها في قلبه الطاهر الشفيق ، ويأتيها بكل حبه وشفقته ورحمته ، فيجلس بينها وبين عليّ كرم الله وجهه حيث أخذوا مضاجعهما ، ويضمهما بخنان غامر ، وتواضع جم ، وينصح لهما بأبوة حانية ، ورحمة فوق إدراك العقول .

« ألا أعلمكما خيراً مما سألتما ؟ » ، وماذا خير من خادم للمكدودة المتعبة المقروحة اليد من أثر الرحي ؟ « إذا أخذتما مضاجعكما فكبرا أربع وثلاثين ، وسبحا ثلاثاً وثلاثين ، واحمدا ثلاثاً وثلاثين ، فهو خير لكما من خادم » .

ومن حق معترض أن يتساءل : وأى رحمة فى أن يمنعها رسول الله ﷺ الخادم ، وهو يعلم مدى ما ألم بها من الألم والجهد ، وعنده السبى يعطيه سائر المسلمين ؟ .

والإجابة ليست بالأمر العسير على من يدرك مدى رحمته ﷺ ، فممنح رسول الله ﷺ خادماً لأى من المسلمين ، فهو رحمة له وشفقة به ، أما أن يعطيه فاطمة رضى الله عنها - سيده نساء أهل الجنة - فإن هذا قد يحرمها مزيداً من الأجر والمثوبة التى ترتقى بها إلى المنزلة التى تنبغى لها كسيدة نساء الجنة^(١) .

وهذا ما يباه عليها رسول الله ﷺ ، ضناً بها على غير منزلتها الرفيعة ، فلا ضير إذاً من تعب الدنيا ومعاناتها ، واحتساب ذلك عند الله ، إذا كان الأجر هو رقى المنزلة إلى ما ينبغى لها ويليق بها .

إنها القوة النفسية ، والرفعة الروحية التى تجعل آلام الجسد خارج دائرة الاهتمام ، وسمو بصاحبها إلى آفاق رضوان الله عز وجل ، فيدرك راحة النفس التى تغسل عنه آلام البدن ، وتضمّد جراحات المشقة ، فينعم بالمغفرة والرضوان إذ « من بات كلاً من عمل يده بات مغفوراً له » .

(١) ومن الأدلة على ذلك أنه دخل عليها يوماً فرأى فى يدها اسورتين من ذهب فقال لها : « ما هذا يا فاطمة » فقالت اسورتين من ذهب ، فقال أتريدين أن يسورك الله بأسورتين من نار ؟ فحلتهما وقال هما لله ورسوله « رواه أحمد وغيره » . سنده صحيح

إنها الرحمة المطلقة ، والحب الفياض المبصر ، الذى ينأى بأحبائه عن راحة فانية إلى راحة أبدية ، رحمة تظل على مر الزمان نبعا صافيا لمعنى الأبوة الراقية ، ودرسا عمليا لمن يجمعون الدنيا من كل سبيل ، لا يعبأون من أى طريق جمعوها ، ظناً منهم أن غايتهم فى تأمين مستقبل الأبناء ، تبرر لهم وسائلهم غير النظيفة - أو هكذا يمتنون أنفسهم - وما دروا أنهم يقدمونهم وقوداً للنار - وبئس القرار - « كل لحم نبت من سحت فالنار أولى به » ^(١) .



المبحث الثالث

وأى خير فى العيش بعده ؟!

إن رسول الله ﷺ الذى يختار لفاطمة عليها السلام ، جهد العمل وخشونة العيش ، هو نفسه الذى يشفق عليها أن تعصف بقلبها الغض مرارة الحزن ، وقسوة الصدمة الأولى .

عن عائشة رضى الله عنها قالت : « دعا النبى ﷺ ابنته فاطمة فى شكواه التى قبض فيها ، فسارها بشيء فبكى ثم سارها بشيء فضحكت ، قالت : فسألتها عن ذلك فقالت سارنى النبى ﷺ فأخبرنى أنه يقبض فى وجهه الذى توفى فيه ، فبكيت ، ثم سارنى أنى أول أهله أتبعه فضحكت » ^(١) .

إن رسول الله ﷺ لم يكن بالنسبة لفاطمة عليها السلام مجرد أب عطوف رحيم فقط ، إنما هو أبوها وهاديتها إلى صراط الله المستقيم ، هو بالنسبة لها أسرة بأكملها ، اختطفتها أيدي المنايا ، لكنها ظلت فيه ﷺ ، هو بالنسبة لها ينبوع الحنان ، ودفع الأمومة وحضنها الحانى ^(٢) ، إذ فجعت بأمرها خديجة بنت خويلد رضى الله عنها أعظم زوجة عرفها خارجة البشرية « أحسن أم » وأدفاً قلب ، وأرجح عقل وركن البيت الركين ، فقدتها بالنسبة لبنيتها هو فقد الحياة لمعناها ، وافتقادها لروحها - لولا بقاء رسول الله ﷺ لهم - .

هو بالنسبة لها القاسم وعبد الله وإبراهيم ، رجالها وحصنها إن هم قُدرت لهم الحياة ، هو بالنسبة لها حنان زينب ، وصداقة رقية ، وود أم كلثوم اللاتى

(١) أخرجه البخارى ، باب علامات النبوة فى الإسلام ، كتاب بدء الخلق .

(٢) ورد أنه كان يقول لها إذا أقبلت عليه « أهلاً بأم أبيك » .

ذاقت مرارة الفجيعة بهن الواحدة تلو الأخرى ، سبع جراحات تشغب دماً فى القلب الرقيق المعنى ، أما موت رسول الله ﷺ فهو ثامن الجراح وأقساها إذ هو الموت المحقق لفاطمة عليها السلام .

كان رسول الله ﷺ يدرك تلك الحقيقة القاسية وهو على فراش الموت يصارع آلامه ويكابد بلواه ، وارتفع على سكرات الموت وآلام الإحتضار المترتبة بروحه الطاهرة ، وجسده الشريف ، ليخفف شدة وقع الفجعة على القلب الرقيق المكلوم .

ودعاها رسول الله ﷺ لينعى لها نفسه الشريفة ، بكل اللطف والرأفة ، فرقا من هول المفاجأة على قلبها وعقلها ، إذ قسوة المفاجآت تطيش بالعقول ، وربما توقف نبض القلوب أو تفتت الأكباد فتات ورقة شديدة الجفاف فى يوم شديد القيظ بيد شديدة القسوة .

أراد رسول الله ﷺ أن يمهد لفاطمة عليها السلام تمهيداً يساعدها على إستيعاب الموقف والتسليم بقضاء الله عز وجل ، والرضا به ، أراد أن يحتضن عذاباتنا ، ويمسح حر الدمع عن قلبها قبل ألا يستطيع ذلك ، « إنه سيقبض فى وجهه هذا » ، هى النهاية إذاً يا فاطمة ، فما قيمة الحياة وليس فيها رسول الله ﷺ ؟ ، وأى خير فى العيش بعده ؟ ، أى أمل فى الصفو بعد هذا الكدر الكثيف المتلاحق ؟ .

إن الموت الآن يا فاطمة هو أسمى الأمنيات ، ولم لا وفى الموت قرب من رسول الله ﷺ فى أخراه ، أفكار ملحة متلاحقة بعقل الابنة الحبيبة التى كاد يعصف بها الحزن والألم ، فيستقرؤها الأب الرحيم الحانى ، وهنا كان لابد وأن يزفها البشرى الحبيبة إلى نفسها ... ترى ما هى البشرى ؟ ... « سارنى أنى أول أهله أتبعه » ، إذاً لن تطول بك حياة البؤس والأحزان ، فأنت أول أهل رسول

الله ﷻ لحوقاً به يا فاطمة .

إن الموت بمعنى سلب الحياة ، بمعنى اغتيال الآمال والطموحات ، بمعنى انهدام الذات وافتراق الجماعات ، فتلك مصيبة ما بعدها مصيبة ، أما أن يكون هو الخلود والنعيم المقيم ، بين الأحبة في جوار رب كريم ، فتلك هي الفرحة تملأ منعطفات النفس ، فتضمّد الجرح وتكفّف الدمع ، وتتخطى نزع الموت إلى أمل اللقاء ، في الفردوس حيث لا موت ولا حزن أو فراق .

وهنا قد حقق رسول الله ﷺ ما يصبوا إليه إذ حمل عن الابنه الحبيبة طيش المفاجأة ، وقسوة الصدمة ، وهول المصاب ، بل وبشرها بقرب اللقاء .

حقاً .. أن ينشغل الأب الراقدة الموت عن هول رقدته بالإشفاق على ابنته ، والرفق بها ، وتضميد مشاعرها النازفة ، فيحاول جاهداً تفتيت وقع المصيبة كي لا تعصف بها ، بل ويعمل على إدخال السرور على قلبها ، وإشعاع البسمة في وجهها المكتوى بحر دموعها ، فتلك الرحمة في أسمى مقاماتها ، والأبوة الحانية في أرقى معانيها .



المبحث الرابع فوعدهن يوماً لقيهن فيه

وإذا رحمت فأنت أم أو أب هذان في الدنيا هما الرحماء (١)
وأى رحمة يمكن أن تقاس برحمته ﷺ حتى وإن كانت رحمة الآباء
والأمهات ؟ ، لم تقتصر رحمته ﷺ على نساء بيته الطيبات الأطهار ، وإنما
كانت كالغيث يعم نفعه حيث يقع ، فالنساء المؤمنات كلهن بناته ﷺ وهو
لهن الأب الحانى الرحيم ، وبين أيدينا الآن فيض من تلك الرحمة الحانية .

فعن أبى سعيد الخدرى رضي الله عنه قال : قالت النساء للنبي ﷺ : غلبنا عليك
الرجال فاجعل لنا يوماً من نفسك فوعدهن يوماً لقيهن فيه فوعظهن وأمرهن
فكان فيما قال لهن : « ما منكن امرأة تقدم ثلاثة من ولدها إلا كان لها
حجاباً من النار ، فقالت امرأة : واثنين ، قال : واثنين » (٢) .

قالت النساء : ولن ؟ للنبي ﷺ . للنساء إذا مقالة أجدر بها أن تسمع ،
ولهن رغبات حقيق بها أن تلبى ، ولهن رأى له حق الإدلاء والمناقشة ، والأخذ
بصوابه أو تصحيح الخطأ فيه ، ليست المرأة فى الإسلام سقط متاع كما يدعى
الأدعياء ، وليست ساذجة مستكينة منزوية ، وليست مقهورة ضائعة مستعبدة ،
تستحق من يهرف بالمناداة بحريتها السلبية ، وحقها المغتصب .

إن من اغتالوا حريتها وضيعوا حقوقها هم من قتلوا حيائها ، وحطموا
كبرياءها ، وانتزعوا حرمتها من القلوب ، وخلفوها سلعة لا يدفع فيها ثمن ،
وإنما تدفع هى الثمن !! ، المرأة فى الإسلام قيمة فى ذاتها ، رفعها الشرع

(١) شوقى

(٢) صحيح البخارى ، ٢/١٠ كتاب العلم ، باب « هل يجعل للنساء يوماً على حده فى العلم » .

الحنيف حيث يجب أن تكون ، وقدرها رسول الله ﷺ حق بقدرها ، وأكد على عظيم خطرها ، ومدى دورها الفعال في شتى مناحي الحياة ، بل أشفق عليها من ثقل المهام الجسام الملقاة على عاتقها .

فهى الأم مربية الأجيال وصانعة الرجال ومحددة بهم مصائر الشعوب ، إذ تعلمهم فن الحياة ، وتغرس فيهم أرقى القيم وأرسخ المبادئ وأنبأ الأخلاق ، فتفتتح بها أكمال عقولهم ، وتتفتق عن طاقات بناء وقدرة مذهلة .

هى الزوجة المحبة الواعية ، التى تنمى فى زوجها خير ما فيه ، وتدفعه إلى سرعة اكتشاف مواهبه التى لم يكتشفها بعد ، وتعينه على حسن استغلال طاقاته ، فيرتقى بذكائه ووعيتها إلى أقصى ما تمكنه قدراته ، هى الجبهة الداخلية والقوة الدافعة ، والحنان الفياض ، والسكن الدافئ ، هى نصف المجتمع وصانعة النصف الآخر ، هى من تدير الرحى ييمنها وتهدهد الطفل يسراها ، وتسبح الله بقلبها ولسانها وتعمل فى شتى مجالات الخير فكرها ، هى المجاهدة فى ساحات الوغى ، تضمد الجرحى ، وتروى العطش ، وتلهب حماس الرجال ، بل وجندى ينافح بسيفه وخنجره عن الإسلام إذا حمى الوطيس .

وأم عمارة وأم سليم وغيرهما الكثيرات الكثيرات ، ما زال يلمع نجمهم فى سماء التاريخ المشرق المنصف ، لن يخبو أبداً ولن يخفت يوماً سناه ، هذه هى المرأة كما أرادها الله تبارك وتعالى ، وكما رباها رسول الله ﷺ . لهذا ولغيره الكثير ، كان حرص رسول الله ﷺ على الإنصات لها حين تقول ، وتلبية رغباتها حين ترغب فى الخير ومزيد الفضل .

قالت النساء لرسول الله ﷺ ويا حسن بما قالت : قالت : غلبنا عليك الرجال ، أخذوا بحظ أوفر من وقتك المبارك ، فقبسوا من نورك وشرفوا بمجالستك واستزادوا من خيرك ، ونحن لا نرضى بحظنا منك بديلاً ، ولا

نرضى باستئثار الرجال بك دوننا ، بل نطالب بما ينبغي لنا من حق العلم والتربية والزاد الذى يعيننا على القيام بمسؤوليتنا ، فاجعل لنا يوماً من نفسك نستأثر نحن بك دون الرجال .

ما أروع المطلب وما أسمى الغاية ، وأكرم بهن من فضليات يعرفن قدر حقوقهن ، ويطالبن بها فى قوة نفس ورفعة أدب ، لهذا سارع رسول الله ﷺ فى تلبية هذا المطلب العادل فوعدهن يوماً ، فوفى لهن - ومن أحق منه ﷺ بحسن الوفاء ؟ - .

هذا رسول الله لم ينقص حقوق المؤمنات العلم كان شريعة لنسائه المتفقهات (١)

لقيهن رسول الله ﷺ فبدأ بوعظهن لما يعلم من سرعة انفعال المرأة وقرب استشارة غضبها ومدى انخراطها فى أمور قد تلهيها عن بعض واجباتها الشرعية ، ثم أمرهن بما فيه نفعهن وخلاصهن والإرتقاء بأنفسهن وبمن خلفهن ، فكانت تلك رحمته ﷺ بهن وحرصه عليهن .

ولإن كان رسول الله ﷺ رحيماً بالمرأة حانياً عليها فى حالتها العادية ، لهو أشد حنواً بها وحرصاً عليها فى حالات ضعفها أو حزنها أو انكسارها ، فما الظن به فى حالة ثكلها والتياعها ؟ .

حرص رسول الله ﷺ فى أول لقاء بالنساء منفردات ، أن يعزف على أوتار الشك والالتياح عندهن ذلك أنها أكثر الأوتار حساسية وأعلاها رنيناً وأغورها جرحاً وأبقاها أثراً فى قلب المرأة ، فكان فيما قال : « ما منكن امرأة تقدم ثلاثة من ولدها إلا كان لها حجاباً من النار » ، لشدة ما تتألم الأم لآلام ولدها ،

ولشدة ما يحزننها ويؤرقها حزنه أو مرضه أو إخفاقه في بعض مبتغاه ، ولشدة ما يعتصرها فراقه إياها لبعض الوقت ، فكيف بها إذا امتحنت بموته ؟ بما في الموت من شدة النزاع وانقطاع الأمل ومعنى العدم وأبدية الفراق ، واستحالة اللقاء في الدنيا - وإن كان القبر قاب قوسين أو أدنى - .

كيف بها وقد حملته في أحشائها جنيناً وفي صدرها رضيعاً وفي قلبها أملاً مشرقاً يطرب البيت لأولى ضحكاته ، ويهتز فرحاً لأولى خطواته ، ويطرب نشوة لأولى كلماته ، ويهرول ملبياً لأولى رغباته .

كيف بقلب الأم الذي يرقب الوليد يوماً فيوماً يترعرع وينمو ، ويرقبه طفلاً يلعب ويلهو وصبيّاً يشب ليطاول هامات الرجل ، وشاباً طموحاً يسعى لتحقيق الآمال ، ورجلاً يقوم بمسؤولياته خير قيام ، وامتداداً تحي فيه الآباء والأجداد .

وإذ بيد المنية تختطفه من حضن قلبها ، وتخطم فيه آمالها ، وتضرم الأحزان بقلبها اضطراباً لا يخبو يوماً ولا ينام ؟ ، ثم كيف بها إذا تكررت المأساة مرة ومرة ؟ ، إنها عذابات متكاثفة يطيش لها لبها ، أو ينخلع لها قلبها ، أو يفتت لها كبده ، أو يقتلها ثكلها ، أو يجتمع كل ذلك لها .

لهذا كانت رحمته ﷻ بالنساء في أول لقاء جعله خصيصاً لهن ، وقد اقتضت أن يحيطن بسياج من الإيمان والصبر والاحتساب ، فكان أن يشرهن تلك البشرية الكريمة ، شريطة أن تنزلن على قضاء الله راضيات محتسبات ، فيهب طيف الجنة برداً وسلاماً على قلبهن الملتاع المحترق بنار الثكل ومرارة الفراق .

﴿ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ (١٥٧) ﴾

[البقرة : ١٥٥ - ١٥٧] .

يا لها من رحمة غامرة ، نسجت من الصبر على المصيبة حجاباً مانعاً من الوقوع فى النار ، وهل مصائب الدنيا وإن جلت تقارن بلفحة واحدة من حر النار ؟ ، أعاذنا الله ولياكم من عذابها .

يا لها من بشرى أحيت كل امرأة قتلها ثكلها فى اثنين من أولادها أو ثلاث فضلاً عما زادت على هذا ، يا لها من بشرى داعبت الأمل فى كل قلب مكلوم بفقد فلذة من أبنائه ، بل يالها من بشرى جعلت من بعض الصاحات ، بل ومن بعض الصالحين من تمنى - على مرارة تلك الأمنية - فقد فلذة يحسبها عند الله تبارك وتعالى ، فتكون له سترأ من النار .

وتاريخ الصفوة من الصالحين حافل بمثل هذا ، ولم لا ، وهم يطعمون أن تدخل عليهم الملائكة من كل باب ﴿ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴾ [الرعد : ٢٤] ، إنها الرحمة الفياضة ، قد حولت المصيبة فى القلب المكلم فرحة غامرة وأحلت مكان الثكل والمرارة وضيق الصدر ، حلاوة الصبر وراحة الرضا بقضاء الله عز وجل ، وحولت جحيم الفراق إلى التطلع نحو جنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين ﴿ أُولَئِكَ يَجْزُونَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلْقَوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَاماً ﴾ (٧٥) خَالِدِينَ فِيهَا حَسَنَتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً ﴿ [الفرقان : ٧٥ - ٧٦] .



الفصل الثالث

رحمته ﷺ بالعصاة

- المبحث الأول : أطعمه أهلك ... أطعمه أهلك
- المبحث الثاني : لا تكونوا عون الشيطان على أخيكم .
- المبحث الثالث : أتشفع في حد من حدود الله ! .

المبحث الأول أطعمه أهلك ، أطعمه أهلك .

يا كثير العفو عمن كثر الذنب لديه
جاءك المذنب يرجو الصبح عن جرم لديه^(١)

ومن للبشرية يارب وقد أجب عليها بخيله ورجله إبليس اللعين ، وأضرمت فيها جحيم الكفر وتيه الحياد عن طريقك المستقيم ؟ .

من لبنى الإنسان يارب وقد استعملهم إبليس اللعين جنداً بلهاء يذبح بعضهم بعضاً ، يُعذَّب بعضهم بعضاً ، ويجتاح بعضهم بعضاً ويؤله بعضهم بعضاً ؟ ، من للتائهين المتخبطين ، الباحثين عن طوق نجاة فى بحر لجى الموج كثيف الظلمات ؟ ، من لهم جميعاً يارب إلاك ؟ ، فرحمتك جل ثناؤك يارب قد اقتضت أن ترسل بين الفينة والفينة طوق نجاة ، يحمل مشكاة من فيض نورك المبارك ليبدد ظلمات الكفر وينتشل الغرقى وينفخ فيهم من فيض سناك حياة أى حياة ! ، وواسطة العقد وخير المنقذين رسولك الأمين محمد بن عبد الله ﷺ ، رحمتك المهداة ، نور الحق ، وهادى الركب ، الذى لم يألو جهداً فى التبليغ والتأديب والنصح والإشفاق والذب عن شهوات الجحيم ، ولكن بعداً للقوم الظالمين المتعامين عن النور المبين .

فها هو رسول الله ﷺ يتضوع فرقاً على من حرص على إنقاذهم بنور الله تبارك وتعالى ، فأبوا إلا التخبط فى الظلمات والتردى فى الجحيم فيقول :
« مثلى ومثلكم كمثلى رجل أوقد ناراً فجعل الجنادب والفراش يقعن فيها

وهو يذبح عنها ، وأنا أخذ بحجزكم عن النار وأنتم تفلتون من يدي ^(١) .
 ما أجهل وأضل من ينساق لعدوه فيورده موارد الهلكة وينأى بنفسه عن
 حبيب يسلك به طريق الهدى والرشاد ، ولقد كان رسول الله ﷺ حريصاً على
 استنقاذ البشرية من بين أنياب إبليس لعنه الله ، فعمل جاهداً على تبليغ كلمة
 الله عز وجل ، ولشد ما كان حرصه ﷺ على صحابته الكرام فرباهم على عينه
 وأدبهم بأدبه وفاض عليهم من سنا علمه الذى علمه الله .

ولشدة ما حرص رسول الله ﷺ على إخوانه الذين لم يرههم ، فحمل صحابته
 رضى الله عنهم جميعاً أمانة التبليغ لمن بعدهم حتى تصل الدعوة غرضه نضرة
 إلى الآخرين كما كانت ، وقت جاء بها ﷺ وذلك شفقة على الأمة ورحمة
 بها أن تحيد عن السبيل ، وتكليفاً لكل جدير بحمل الأمانة أن يحملها
 ويحفظها غرضه نديه حيث قال ﷺ : « ألا لبليغ المشاهد الغائب فلعل بعض
 من يبلغه يكون أوعى له من بعض من سمعه » ^(٢) .

هكذا كان حرصه المستمر ﷺ على الأمة وشفقته عليها أن تزل أو تحيد ،
 ورحمته بها كى تظل محتمة بمظله الشرع الحنيف فتتأدب بأدابه وتنهج نهجه
 وتقف على حدوده ، ولأن كانت رحمته ﷺ بالمؤمنين الطائعين عظيمة جليلة
 وافر ، فلهى بعصاة المؤمنين أعظم وفرة وأجل قدراً ، ذلك أنهم بحاجة دائمة
 إلى من يقلل عثراتهم ، فيذكرهم دائماً بالله تبارك وتعالى ، ويؤملهم فى عفوه
 ومغفرته ، ويخفوه من عذابه ونقمته ، يأخذ بأيديهم لينهضهم من كبواتهم ،
 أملاً فى إصلاحهم ، وضنا بهم على النار ، وحرصاً عليهم من انفراد الشيطان
 بهم ، وهامو أبو هريرة رضي الله عنه يروى لنا من بستان السنة المطهرة فيضاً نورانياً

(١) البخارى ومسلم واللفظ لمسلم برقم (٢٢٨٥) .

(٢) مسلم (١٦٧٩) والبخارى ، باب قول النبى ﷺ : « رب مبلغ أوعى من سامع » واللفظ لمسلم .

يصور مدى رحمة رسول الله ﷺ بأحد المسرفين على أنفسهم المجترئين على ربهم - تعالت عزته - المقرين بذنوبهم الطامعين في العود إلى ساحة الرضوان حيث قال :

« بينما نحن جلوس عند النبي ﷺ إذ جاءه رجل فقال: يا رسول الله هلكت قال مالك ؟ قال : وقعت على امرأتى وأنا صائم ، فقال رسول الله ﷺ : هل تجد رقبة تعتقها ، قال : لا ، قال : فهل تستطيع أن تصوم شهرين متتابعين ، قال : لا ، قال فهل تجد طعام ستين مسكيناً ، قال : لا ، فمكث عند النبي ﷺ فبينما نحن على ذلك أتى النبي ﷺ بعرق فيه تمر - والعرق المكتل - قال : أين السائل ، قال : أنا ، قال : خذ هذا فتصدق به ، فقال الرجل : أعلی أفقر منى يا رسول الله ؟ ، فوالله ما بين لابتيها يريد الحزين - أهل بيت أفقر من أهل بيتي ، فضحك النبي ﷺ حتى بدت أنيابه ثم قال : أطعمه أهلك ... أطعمه أهلك » (١) .

ما أعظمك ، وما أحلمك ، وما أنبل خلقك يا حبيبى يا رسول الله ، الرجل صحابى جليل ، تربى فى المدرسة الحنيفية ، وتلمذ على أعظم أستاذ ، سعدت به البشرية ، فسمى بعلمه واستضاء بهديه ، ومضى على دربه ، صواماً قواماً جوالاً بفكرة فى ملكوت الله عز وجل ، مُحَوِّماً بقلبه حول العرش العظيم ، وها هو اليوم قد أظلم نهاره لله عز وجل ، فشقت نفسه وصفى ذهنه ، وارتقى إيمانه حتى كاد يقطف من ثمار الجنة أو يدق باب الريان ، غير أن إبليس عليه لعنة الله ، حسده على التلذذ بجمال الطاعة فأبى إلا أن يفقده سعادته ويهوى به من مرتقاه ، فزين له زوجته ، وأشعل بها رغبته ، فأفسد صومه وأهلكه بالإجترأ على ربه .

(١) البخارى : باب إذا جامع فى نهار رمضان ؟ ولم يكن له شىء فتصدق عليه ليكفر كتاب الصوم .

وأفاق الرجل على وخز الضمير ، وصراخ الإيمان فى قلبه ، ومرارة الندم فى حلقه ، وشاة الخوف من الله تبارك وتعالى ، فضاقت عليه الأرض بما رحبت ، ولم يجد لنفسه مخرجاً إلا عند رسول الله ﷺ فهرع إليه بخوفه ومرارة نفسه ، وحزنه وندمه ، ينعى بالأسى نفسه ، هلكت يا رسول الله ، فالتمس لى مخرجاً يقينى الهلكة والضياع ، أدرك رسول الله ﷺ مدى ما ألم بالرجل من هم أثقل كاهله ، وأضح مضجعه ، واعتصره اعتصاراً ، فقال : مالك ؟ بشى همك والى عن قلبك هذا الفزع ، أخبرنى ما الخير .

قال : هلكت يا رسول الله ، إنى عصيت من حيث أردت الطاعة ، وأسأت لنفسى من حيث أردت الإحسان بها ، غلبتنى بشرى فإردانى الشيطان فى المعصية ، ثم صرخ الإيمان المجروح فى قلبى فسعيت ألتمس النجاة لديك فهل لى من نجاة ؟ .

إنه ﷺ كان ياخذ بأيديهم خطوة خطوة ، يعلمهم ويربهم ويبلغهم الوحي آية آية ، ويرسم لهم الطريق المستقيم لحظة بلحظة ، ولا يألو جهداً فى النصيح لهم والتوجيه ، بل يكفى وجوده بينهم ليكون هو ضميرهم اليقظ ، وعقلهم الواعى الراشد ، وقلبهم التقى المستحى من اطلاع الرقيب سبحانه وتعالى عليهم ، أقول : لو قسى رسول الله ﷺ عليه لكانت تلك هى الرحمة بعينها إذ قسوته على الرجل فى تلك اللحظة غيرة على الدين ، وغضباً للوقوع فى المعصية بعد كل ما يبذله ﷺ فى التربية والتهديب ، غير أن رحمته ﷺ كانت فوق تلك الرتبة بكثير ، إذ عالج الأمر بروية وحكمة باحثاً للرجل عن المخرج الشرعى بدلاً من التوبيخ والعتاب الذى ربما أضعاف الرجل وأقنطه من رحمة الله عز وجل ، لهذا بادر الرجل بسؤال يشع حناناً وطمأنينة ، هل تجد رقبة تعتقها ؟ «هل تجد» لم يلق إليه بالحل دونما التفات إلى إمكانية التطبيق ، بل يتباحث مع الرجل - فى حدود الدلائل الشرعية - ليصل به إلى ما يناسبه من تلك الحلول .

فأجاب الرجل بلا . هل تستطيع أن تصوم شهرين متتابعين ؟ ، وأجاب الرجل أيضاً بلا ، فهل تستطيع إطعام ستين مسكيناً ؟ ، قال ولا هذه يا رسول الله ، استنفذ رسول الله ﷺ كل المخرج الشرعية للرجل وهو لا يقوى على الخروج من أى منها ، وماذا يفعل رسول الله ﷺ ؟ أترك الرجل لمعصيته وحيرته ؟ ، فقد بين الحكم الشرعى وعدد له المخرج مخرجاً مخرجاً ، فعليه أن يجتهد فى الخروج من أيها إذا أراد النجاة .

غير أن رسول الله ﷺ لم يكن لينهى مهمته عند ذلك الحد ، كيف هذا وهو الرحمة المهداة ؟ ، وكان المخرج مكمل من تمر ، أعطاه رسول الله ﷺ الرجل ليتصدق به تكفيراً عن الذنب ، وإرضاءً للرب ، وخروجاً من ذل المعصية ، وكان على الرجل أن يقبل عطاء رسول الله ﷺ ، راضية به نفسه ، مغتبطاً به قلبه ، شاكراً بفضل ربه ، حافظاً معروف نبيه ﷺ ، ثم يذهب ليتصدق به ، فيتحلل من إثمه ، ويتطهر من معصيته ، غير أن رحمة رسول الله ﷺ قد أطمعت الرجل فيما هو أكثر من ذلك ، أطمعته فى الاحتفاظ بهذا التمر لنفسه ، والتصدق به على أهله وعياله الفقراء المعوزين .

وهنا كان لابد أن ينفذ صبر الحليم ، وتتملح الرحمة فى القلب الرحيم - إلا أن يكون هذا القلب هو رسول الله ﷺ - ضحك رسول الله ﷺ عجباً من أمر الرجل ، وترفقاً به ، وتودداً له ، ثم قال : « أطعمه أهلك ... أطعمه أهلك » .

صلى الله وسلم وبارك عليك يا نبي الرحمة ، فقد أتاك الرجل مزعوراً هالكاً ضائقاً صدره ، مغلولاً فى ذنبه ، وقام عنك منشرحاً مطمئناً ، مكفراً عن ذنبه ، يحمل الفرحة بين أضلاعه ، وطعام أهله بين يديه ، ونور الإيمان المتجدد فى قلبه

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا
لذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٣٥)
أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا
وَنِعَمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (١٣٦) ﴾ [آل عمران : ١٣٥ ، ١٣٦] .

إنها حقاً معالجة حكيمة ، جبرت كسر الرجل وأطلقت من ذل معصيته ،
وأذهبت جوع أهله ، وجعلت للأمة مخرجاً من بعده ، وصدق الله العظيم
حيث يصف رسوله الكريم بقوله :

﴿ فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ
حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ ﴾ [آل عمران : ١٥٩] .



المبحث الثانى

لا تكونوا عون الشيطان على أخيك

لطالما نوع رسول الله ﷺ فى طرق معالجة الأدواء بما يتناسب مع طبيعة الداء وطبيعة المداوى ، فلربما أتى الرفق بما لم تأت به الشدة لدى شخص ما ، ولربما أتى العتاب الرقيق بما لم يأت به العنف مع آخر ، ولربما أتى الهجر بما لم يأت به العتاب مع ثالث ، ولربما أتت الشدة بما لم يأت به الرفق والعتاب والهجر مع رابع .

أساليب تربوية متنوعة ، ومحسوبة النتائج عند المربي الأعظم ﷺ حسب تقديره للمواقف ، وتحليله لشخصية صاحبه ، وإدراكه لمنعطفات نفسيته ، ومدى انفساح عقله وارتقاء تفكيره .

ومن أسباب العلاج ما هو موقف على تقدير رسول الله ﷺ ، ومنه ما هو أمر ربانى ومنهج شرعى ، لا يملك المسلم معه إلا التسليم والرضا ، وربما كان ظاهره الشدة إلا أن حقيقته رحمة بالغة بالأمة أفراداً وجماعات ، إذ أن الله سبحانه وتعالى الذى خلق الخلق وهو أعلم بهم قد شرع لهم ما يصلح دنياهم ودينهم ، وهو الخبير العليم ، وكل أوامره رحمة بالغة ، إذ هو أرحم الراحمين ، والموقف الذى نحن بصدد الآن تتجلى فيه رحمة الله تبارك وتعالى فى تطهير عبده المؤمن مما يلزم به من رجس المعصية ، ثم تتجلى فيه رحمة رسول الله ﷺ على المذنبين المقتحمين لحدود الله عز وجل .

وموقفنا هذا يفرض علينا من رقة رسول الله ﷺ ورحمته فيضاً نورانياً ينساب فى النفس الإنسانية رقة وشاعرية وحناناً فيعلمها كيف تحنو وترحم حتى العصاة المذنبين

عن أبى هريرة رضي الله عنه قال : أتى النبي ﷺ بسكران ، فأمر بضربه فمنا من يضربه بيده ومنا من يضربه بنعله ، ومنا من يضربه بشو به ، فلما انصرف قال رجل : ما له أخذه الله ، فقال رسول الله ﷺ : « لا تكونوا عون الشيطان على أخيك » ^(١) .

الخمير أم الخبائث وطريق المغيب إلى كل رذيله ، لها فى النفس الدنيعة لذة ونشوة ، ولها فى القلب المريض جاذبية وبريقاً تستهوى من لا خلاق له وتأسر من لا عقل له ، فما بال هذا الرجل وقد رياه رسول الله ﷺ وتعهده وأرشفه التشريع ندياً ، وأقرأه التنزيل غصاً طرياً ؟ ، ما له وقد استعبده شهوته ، فتدنت به إلى معصية الرسول ﷺ ، والاجترأ على محارم الله عز وجل ، فتردى فى الهلكة ، تردى الفراش فى النار ؟ سكر الرجل رغم علمه بتحريم الخمير ، وتحذير رسول الله ﷺ من كل مسكر ، لكنه غرير أغراه السائل الخبيث ففعل به . فى حوفه وغلف به عقله ، وتردى به إلى مكانة لا تليق بتكريم الله تبارك وتعالى لآدميته ، وحرص رسول الله ﷺ على إنسانيته .

وهنا وجب حق الله تبارك وتعالى ، وحق الله أولى بالقضاء ، ولهذا أمر رسول الله ﷺ بضربه حداً لتعديده حدود الله جل سناه ، وتطهيراً له من الذنب ، إنها الرحمة البالغة ، كيف ؟ وهل يصبح الضرب رحمة ؟ .

إن الرجل بمخالفته أمر الله تبارك وتعالى وشربه للخمر قد أثقل كاهله بالسيئات ، وأهلك نفسه بغضب الرب عز وجل ، وغضب الرب تبارك وتعالى نار تلظى يصلها كل مجترئ أشقى ، نعوذ بالله من الإجتراء على محارمه والشقاء بمعصيته ، إن بضع عشرة ضربة تكفر ذنب الرجل وتطفئ غضب الرب

(١) البخارى ، باب ما يكره من لعن شارب الخمر ، وإياه ليس بخارج من الملة ، كتاب الحدود .

لهي الرحمة البالغة إذ تعيد المذنب إلى حظيره الإيمان وتقتلع من نفسه جذور التلذذ بالخمر وتقى المجتمع شر ذهاب عقله وترديه في كل منكر . إذ أن للخمر ما بعدها من كل شر ورزيلة .

أمر رسول الله ﷺ بضرب الرجل حداً يطهره ، فتبادر الحضور إليه باليد والثوب والنعل حسبما تيسر لكل منهم ، علت النعال الرأس المندس بالمعصية ، والعقل المغيب بالشهوة ، والإنسانية المتردية إلى ما هو دون البهيمية ، فحق للرجل أن تلعوه النعال لتطهره ، هكذا أخذت تحط عن الرجل يد الضارب بعض خطاياهم ويحط عنه ثوب الآخر بعضها ، وتنتشله نعل ثالث من الدنس إلى الطهر والنقاء ، حتى تساقطت عن الرجل سيئات جريمته ، فعاد مكتمل الإيمان ، طاهر النفس مكفراً عن الذنب ﴿ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ١٦٠ ﴾ [البقرة : ١٦٠] .

إنها الرحمة التي أهداها الله تبارك وتعالى إلى عباده على يد رسوله الرحيم ليعيدهم إلى صراطه المستقيم رحمة تحثو التراث في أفواه المتشدين بوحشية الحدود وقسوتها ، كيف وقد شرعها أرحم الراحمين ، إن القسوة ليست في إعطاء المريض الدواء رغم مرارته ، إنما في حبسه عنه ، إن القسوة ليست في الجرح إذا استعصى على الدواء ، إنما في تركه ينزف حتى الموت ، إن القسوة ليست في بتر العضو المصاب بالأكلة ، إنما في تركه حتى تسرى منه إلى الجسد كله فيقاسى وحشية الألم ومرارة العذاب ومعاناة الجميع حوله حتى يقضى لا تنفعه جميع الأدوية .

الرحمة إذاً هي عودة العبد الأبق إلى رحاب سيده ، تائباً نادماً مكفراً عن ذنبه - إن كان ثمة ما يوجب الحد - وقد عاد الرجل وطهره والله الحمد والمنة ، فلما انصرف قال رجل : ما له أخزاه الله ؟ ، كيف يجروء على تعدى حدود الله تبارك وتعالى ؟ .

كيف استذلته كأس خبيثة دنسه فسرى خبثها ودينسها فيه ؟ ، فقال رسول الله ﷺ : « لا تكونوا عون الشيطان على أخيكم » ، نعم إنه إذ هانت عليه نفسه قد هان على الله وعلى عباد الله حتى تناولته أيديكم وأثوابكم ونعالكم ، أما وقد تطهر وعاد إلى رحاب ربه فلا سبيل لكم عليه ، ولا حق لكم في تناوله ، ولو بمجرد الألسنة ، فقد عادت حرمة كمسلم ، وقد اكتمل بالحد ما نقص من إيمانه فلا سبيل لكم عليه الآن .

فلا تكونوا عون الشيطان على أخيكم ، لا يستقذروه فتفقده ثقته في القدرة على السمو بنفسه ، والترفع عن تلك الدنيا فيستسلم للشهوات ويخلد للسقوط فتكونوا أنتم أول من أسلمه للشيطان .

إن حقه عليكم أن ترتفعوا به حيث أراد الله ، ولا تقصوه عنكم ، فإنما الذئب يأكل من الغنم القاصية ، بل تعهده بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وحسن الصحبة وصدق النية ، احتووه بقلوبكم وتعهدوه بإخلاصكم ، فتقوى العزيمة في نفسه ، وتقوى على المعصية صبره ، وتقوى رغبته في النحاق بركب الصالحين فيكون هو المعافى الذي لم يترك الجرح ندباً في نفسه تعكر صفاءها وتشوه جمالها ، يا لها من رحمة واعية تقيم المعرج وتشفى العلل وتمحو ذل المعصية ، فإذا المعتل المنهك صلب العود قوى الإرادة صحيحاً معافى .



المبحث الثالث

أتشفع في حد من حدود الله !!؟

من لى برد جماح من غوايتها كما ترد جماح الخيل باللجم
فلا تُرم بالمعاصى كسر شهوتها إن الطعام يقوى شهوة النهم
والنفس كالطفل إن تهمله شب على حب الرضاع وإن تفضمه ينفطم
فأصرف هواها وحاذر أن توليه إن الهوى ما تولي يُعم أو يصم
وراعها وهى فى الأعمال سائمة وإن هى استحلت المرعى فلا تبسم
كم حسنت لذة للمرء قاتلة من حيث لم يدر أن السم فى الدسم^(١)

نعم إن لم تفضم النفس عن المعاصى استمرأت الغواية ، واسترسلت فى
الغى ، وصارت داءً كريهاً ، لا يلبس أن يستشرى عداوة فى المجتمع كله داءً
عضالاً لا دواء له ولا منجاة منه .

وانفطام النفس عن المعاصى لا يتم إلا بمراقبة الله عز وجل ، والوقوف
على حدوده ، وسلامة المجتمع لا يتم إلا بحراسة تلك الحدود ، والأخذ بقوة
على يد كل معتد أثيم وفى هذا سلامة الفرد ككيان بشرى تورده المعاصى
موارد الهلكة ، وسلامة الأمة ككيان اجتماعى تستشرى فيه الفوضى بالمعاصى
وترديه الرزيلة ويقضى عليه التفكك والانحلال .

وها نحن بصدد هدى نبوى مبارك يشفق منه رسول الله ﷺ على الفرد أن
تخييط به آثامه وعلى المجتمع أن يستشرى فيه الداء وتستعصى الأدواء .

(١) البردة للبوصيرى .

عن عائشة زوج النبي ﷺ أن قريشاً أهمهم شأن المرأة التي سرقت في عهد النبي ﷺ في غزوة الفتح ، فقالوا من يكلم فيها رسول الله ﷺ ، فقالوا : ومن يجترئ عليه إلا أسامة بن زيد حب رسول الله ﷺ ، فأتى بها رسول الله ﷺ فكلمة فيها أسامة بن زيد ، فتلون وجه رسول الله ﷺ فقال : « أتشفع في حد من حدود الله ؟ » فقال له أسامة : أستغفر لي يا رسول الله ! ، فلما كان العشي قام رسول الله ﷺ فاخطب فأثنى على الله بما هو أهله ثم قال : « أما بعد فإنما أهلك الذين من قبلكم ، أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد ، وإنني والذي نفسي بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها » ، ثم أمر بتلك المرأة التي سرقت فقطعت يدها ، قال عائشة : فحسنت تربتها بعد ، وتزوجت ، وكانت تأتيني بعد ذلك فأرفع حاجتها إلى رسول الله ﷺ ، ^(١) .

الرحمة بالفرد أن تجتث جذور المعصية من نفسه اجتثاثاً ، فالذي لم ينهه الرجاء فيما عند الله سبحانه وتعالى عن المعصية ، يردعه الخوف من عذابه ونقمته عز جابه ، والذي لم يقلع عن الذنب بالموعظة الحسنة ، ينزجر بالتهديد والوعيد ، والذي لم يرتدع بهذا ولم ينزجر بذلك ، فإن به عطباً خبيثاً واجب الاجتثاث والعطب الخبيث هنا كان في يد تلك المرأة الشريفة ، التي لم يمنعها شرفها من التردى في الجريمة ، وما حالت حدود الله تبارك وتعالى بينها وبين السقوط في المعصية ، فلا هي حفظت حدود الله فوقفت دون اقتحامها ، ولا هي حفظت شرف قومها فوقفت دون امتهانه ، وإنما كان صوت الجريمة في نفسها أقوى من كل الأصوات ، وجاذبية الجريمة ليدها أقوى من كل الحدود والقيم ، لهذا كان حقاً على تلك اليد الخبيثة المجترئة على الله جلّت عظمته أن

(١) مسلم (٦/٢٠٢) .

واجهة الخلق الهزيل - الرحمة -

تبحث تطهيراً لصاحبيتها ، واتقاءً لعطبها الذى استعصى على كل علاج ، فكانت رحمة رسول الله ﷺ بالمرأة هو القصاص الذى يطهرها من الذنب ويقيها عذاب الرب وويلات الجحيم .

أما رحمته ﷺ بالمجتمع فهي أن يبحث عناصر الجريمة منه ، فلا تستشري فى جسم الأمة ، ولا تصيب الكيان الاجتماعى بالإعياء والدمار ، ليكون المجتمع قوياً نقياً مترابطاً متراحماً ، ولن يتأتى هذا إلا بإرساء قواعد العدالة الاجتماعية حيث تظل الناس مظله واحدة ، هى مظلة الشرع الحنيف ، ويكال للناس بمكيال واحد ، هو مكيال الله الذى لا تشرده عنه مشاقيل الذر ، ويزن الناس بميزان واحد هو ميزان التقوى ، ويقيس الناس بمقياس واحد هو مقياس العمل لله عز وجل ، فمن انقطع به عمله لن يوصله نسبه ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴾ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿ (٨) [الزلزلة : ٧ ، ٨] .

ومن يجترئ على حدود الله فلا شفاعة فيه لمقرب أو حبيب ، ومن هنا فلا شريف ولا وضيع ، ولا غنى ولا فقير ، ولا عظيم ولا حقير ، إنما التقوى هى خير زاد فى الرحلة إلى الله عز وجل ﴿ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ [البقرة : ١٩٧] . والعمل هو خير مركب ﴿ مَنْ عَمِلْ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (٩٧) [النحل : ٩٧] .

فالمجتمع نسيج متكامل ، تتكافأ فيه الفرص ، وتتوحد فيه الأحكام الشرعية وتتوارى فيه الأنساب خلف نسب الدين وتلغى فيه الأحساب أمام حسب الإسلام ، كما قال المؤمن الحق سلمان الفارسي رحمه الله :

أبى الإسلام لا أبى لى سواه إذا افتخروا بقيسى أو تميم
وها هى الزهراء رضى الله عنها بنت أشرف خلق الله ، يقرر رسول الله ﷺ

وهو يرسى قواعد العدالة الاجتماعية لإنها وأدنى مسلم أو مسلمة أمام شرع الله سواء ، وأمام قانون الله أكفاء ، إلا أن يرتفع العمل بأيهما أو تثقل التقوى ميزانه . شرف الإنسان إذاً لا يكمن فى حسب أو جاه أو سلطان ، إنما فى المضى على صراط الله المستقيم والتزام نهجه القويم ، لهذا فلا خصوصية لذى سلطان ، ولا ميزة لذى مال ، إنما هى العدالة المطلقة والرحمة المنصفة التى تقيم مجتمعاً صحيحاً معافاً ، لا يعتره خلل أو اضطراب ولا مكان فيه للطبقية المقيتة ولا فرصة فيه لنمو الحقد والضغائن . إنما هو مجتمع دين متكافئ يثاب فيه المحسن بإحسانه ويعاقب فيه المسيء بإساءته ، ويقتص فيه ولى الأمر من كل متعد لحدود الله ، ومن هنا باءت اليد الآئمة بجرمها وتطهرت صاحبته ، فتابت وحسنت توبتها ويمت بيت رسول الله ﷺ كلما حزبها أمر فيقضى رسول الله ﷺ حاجتها ويعاملها برقة بالغة ، وبنفس الرحمة التى حولتها من سارقة متعدية إلى مؤمنة صادقة الإيمان . هكذا كانت رحمته ﷺ بعصاة الأمة رحمة ردتهم إلى رحاب الله عز وجل رداً جميلاً ، وعلمت البشرية كيف يحتوى شاردها ، وتقوم معوجها ، وتقبل عثرة ضعيفها ، وترتفع بساقطها ، وتغرس الأمل فى كل قلب شارد عن منهج الله أنه متى سارع للرجوع وجد قلباً رحيمة تحتضنه وأيدى حانية تنفض عنه غبار الخطيئة وعقولاً مضيئة تهديه الطريقة وقبل كل هذا رب كريم يغفر الذنب ، ويقبل التوب ، ويعفو عمن أساء ، ويسع الكل برحمته فتلهج إليه الألسنة وتضرع إليه القلوب .

فمن إلّاك يارب رحيم يغفر الذنب

ويجعل ناره برداً على القلب الذى تاب

﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ
الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ (٥٣) ﴿ [الزمر : ٥٣] .

الفصل الرابع

رحمته ﷺ بالأطفال

- المبحث الأول : من لا يرحم لا يُرحم .
- المبحث الثاني : اللهم ارحمها فإني أرحمهما .
- المبحث الثالث : فجعل يمسح خدي أحدهم .
- المبحث الرابع : فاسمع بكاء الصبي فأتجاوز في صلاتي .

المبحث الأول من لا يرحم لا يُرحم

إن المربي في شرع الهدى رحم بر بمرعيه لا عاتى الخلق
يدمى بسوط الأذى القطعان وهو يرى في نفسه ضيقاً قد صال في غسق
أطفالنا يا رعاة الجيل عندكم وديعة لا دمي حطم لدى النزق^(١)

نعم إن المربي الأمين رحم حانيه ، تحتضن الناشئة برفق ومحبة ، احتضان
النطف المشيحية الهيئة الطائفة ، فتتشكل له حسبما شاء وتتلون به كيفما أراد ،
فتسمع بأذنيه ، وترى بعينيه ، وتتكلم بلسانه ، وتفكر بعقله إلى حد بعيد ،
كيف لا وهو الذي نحت فكره في عقولهم ، وطبع شخصيته على صورهم ،
ونقش علمه في قلوبهم ، فيصبحوا منه نسخ شبه مكرورة ، لا يشذ عنها إلا
صاحب عقلية ناقدة ، أو رؤية متجددة ، أو طاقات بعيدة ، ولا ينسلخ نهائياً
رغم هذا عن صورة المربي إلا وبه منه أثر ، وله فيه شبه قل أو كثير .

لهذا كان حق الناشئة على المربي أن يكون أميناً على ما استودعه الله لديه ،
حريصاً على أن يغرس فيهم كل فضيله ، ويسمو بهم إلى أقصى غاية ، ولن
يتأتى له هذا إلا إذا كانت فكرته فاضلة ، وأدواته نبيلة سامية سمو الهدف ونبل
الغاية .

وأسمى أدوات المربي هي مكارم الأخلاق ، التي تتجلى على الناشئة حباً
وحناناً وحلماً وتواضعاً وإخلاصاً وبذلاً ، ورجاحة عقل وحسن تصرف ، وكلها
سنداً للمربي في القيام بمسؤوليته الجليلة خير قيام ، فينبت غرسه ، ويحلو ثمره ،

(١) الشيخ كامل بدر

ويورق شجره ظلاً ظليلاً ، يلود به المجتمع ويستروح فيه .
 « فإذا لم يكن المربون على مستوى المسؤولية والأمانة وعلى علم بأسباب
 الانحراف وبواعثه وعلى بصيرة وهدى من الأخذ بأسباب العلاج وطرق الوقاية ،
 فإن الأولاد - لا شك - سيكونون في المجتمع جيل الضياع والشقاء وعصبة
 الفساد والجريمة » ^(١) ، فينوء بهم المجتمع ويعانى ضربات فسادهم ويلفظهم
 من بين أحضانه لفظ مبعد منبوذ ، غير مأسوف عليهم ولا مُعتذر لهم .
 حينها ربما بكى المربى سوء صنعته وتضييع أمانة ، ولا تملك له إلا قول
 الشاعر :

أتبكي على لبني وأنت قتلتها لقد ذهبت لبني فما أنت صانع ؟
 من هنا فقد أرسى رسول الله ﷺ قواعد التربية السليمة للناشئة ، وأولاهم
 من فيض حبه وواسع رحمته ، وجُل اهتمامه ﷺ ذلك أن الطفل نبتة غضة
 ضعيفة بحاجة إلى من يحوطها بالرعاية ويرويها بالحب والحنان ، ويدعمها
 بالنصح والإرشاد ، فى رفق وتؤده ، حتى تقوى النبتة ويشتد العود ، وأولى تلك
 القواعد هى الرحمة الفياضة ، ورحمته ﷺ بالأطفال أوسع من أن يحتويها هذا
 المقام إذ الخلق بها الانفراد يبحث مستقل ، لما لها من أهمية كبرى ، تكمن
 فى كونها قاعدة رئيسة من قواعد التربية عامة ، وتربية الطفل خاصة ، غير أن
 ما يمكننا تناوله فى هذا المقام عدة أمثله ، وإن قلت إلا أنها تلقى الضوء على
 هذا الجانب الرائع من خلقه الرحيم ﷺ ، ومثالنا الأول زهرة ندبة فى فم أبى
 هريرة العطر الفواح .

عن أبى هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال : قَبْلَ رسول الله ﷺ الحسن بن عليٍّ وعنده

(١) تربية الأولاد فى الإسلام

الأقرع بن حابس التميمي جالساً فقال الأقرع : إن لي عشرة من الولد ما قبلت منهم أحداً ، فنظر إليه رسول الله ﷺ وقال : « من لا يرحم لا يرحم » ^(١) .

الحسن بن علي رضي الله عنهما ، عطرة رسول الله ﷺ وريحانته الشذية ، وابنه إذا مات الولد وعقبه إذا انقطع العقب .

أوى الحسن إلى رسول الله ﷺ كما تأوى الفراشة إلى أكمام الزهر النضر ، وشيمة الأطفال دائماً الإيواء إلى القلب الحاني والخصن الدافئ ، وارتسم الحنان الفياض قبله رقيقة ملؤها الحب والرحمة على الخد الغض البرئ رسالة عملية يستشعرها القلب معان رائعة ، قلما تستطيع الكلمات التعبير عنها ، إندesh لها رجل ظن أن الأبوة صرامة وعنف وجفاء ، وأن الرجولة فظاظة مقيئة وغلظة صخرية .

إندesh الأقرع بن حابس حين رأى معنى الأبوة الحققة في فعل رسول الله ﷺ فقال ربما معاتباً نفسه ، ربما معترفاً بجرمه ، ربما نادماً على قسوته وجموده ، ربما لتلك الأسباب مجتمعه قال الرجل زاهلاً : « إن لي عشرة من الولد ما قبلت أحدهم » .

ظننت يا رسول الله أن مقتضى الأبوة طعام لجوع البطون ، ولباس لعري الأبدان ، ومأواً من لهيب الشمس وصفع الرياح ، لم أعلم يا رسول الله أن حق البنوة فوق هذا بالكثير الكثير . جهلت أن الأبوة وجدان في أروع تألقه ، وعقل في أرفع حكيمته ، وعطاء في أعلى قمته ، لم أقف على تلك المعاني من قبل يا رسول الله .

(١) صحيح البخاري ، باب رحمة الولد وتقبيله ومعاقبته ، كتاب الأدب .

وينظر إليه رسول الله ﷺ نظرة كلها اللوم والاستنكار والتوبيخ . أب لعشرة أبناء ، زهور نضرة ، هي لا محالة ذابلة إن افتقدت من يتعهدا ، كان الأخرى بك أن تضم هذا أو تشم هذا ، ويهدد هذا ، ويداعب هذا ، فإذا بك حتى لم تقبل هذا ولا هذا ... أى رجل أنت ؟!

إن الإنسان تربطه بما حوله من أرض وسماء وأبنية ومتاع علاقة ألفة ، ورباط صداقة وهي جمادات لا تشترك معه فى إنسانية أو حياة ، فما بال هذا وهم فلذة كبده ، تجرى دماؤه فى عروقهم ، وتنتقش ملامحة على صفحات وجوههم ويمتدون هم فيه أصلاً ونسباً ويمتد هو فيهم غداً وأملاً .
نظر رسول الله ﷺ إلى الرجل نظرة تحمل تلك المعانى جميعاً ثم عبر عنها بكلمتين جامعتين « من لا يرحم لا يرحم » .

إذ كيف يرجو رحمة الله الغنى عن عباده من يعامل من حوله بقلب معطلة فيه كل وظائفه الوجدانية ، وهو مع ذلك لا يستغنى عنهم ، بل ويرتجى منهم كل رجاء ، وينتظر منهم كل عطاء ، إن « من المشاعر النبيلة التى أودعها الله فى قلب الأبوين ، شعور الرحمة بالأولاد والرافة بهم ، والعطف عليهم ، وهو شعور كريم ، له فى تربية الأولاد وفى إعدادهم وتكوينهم أفضل النتائج ، وأعظم الآثار ، والقلب الذى يتجرد من خلق الرحمة يتصف صاحبه بالفظاظة العاتية ، والغلظة اللقيمة القاسية ، ولا يخفى ما فى هذه الصفات القبيحة من ردود فعل فى انحراف الأولاد وفى تخبطهم فى أحوال الشذوذ ومستنقعات الجهل والشقاء » ^(١) .

كيف لأب لم يعط أولاده حقهم فى الحياة أن يكلفهم بصناعة الحياة ؟ ، وكيف لأب لم يعط أولاده حقهم من الحنان والرحمة فى صغرهم أن يطالبهم

(١) تربية الأولاد فى الإسلام

بحقه من البر والحنان والرحمة فى كبره ؟ ، كيف وهو لم يذقهم معنى الأبوة الحانية الرحيمة ينتظر منهم بنوة بارة وفية ؟! .

هكذا علمنا رسول الله ﷺ : « أن لكل نتيجة مقدمة ، ولكل غاية سبيلها الموصلة إليها ، هكذا علمنا رسول الله ﷺ كيف يكون بر الآباء بالأبناء سبباً مباشر لبر الأبناء بالآباء ، بل وبالجممع كله .

وعلى هذه المعانى الرائعة تربي الصحابة الكرام ، فقد ورد أن عمر أرسل لرجل لكى يعطيه إمرة بلد من البلدان ، فدخل على عمر وهو يقبل أحد أبنائه ، فقال له يا أمير المؤمنين ، تقبل الولدان وأنت أمير المؤمنين ، فقال له عمر : ألك ولد ؟ قال : نعم ، قال : هل قبلت أحداً منهم ، قال : لا ، قال : اذهب ، من لا يرحم لا يرحم ، كيف أعطيك إمارة وليس فى قلبك رحمة ؟ كيف تتعامل مع الرعية إذا ؟!! .

هكذا علمنا ﷺ كى نتتظر قطاف البر من الأبناء أن نزرعه فىهم منذ وجودهم وتنعهده ونرعاها حتى إذا ما استدعته فىنا الحاجة وتطلبه لنا الضعف وجدناه رياناً فياضاً يحمل عنا ثقل الأيام ، ويروى فىنا العود الذى اعتصرتة السنون .

المبحث الثاني اللهم ارحمهما فإني ارحمهما

إن الرحمة خلُقَ طبيعي وسجية متغلغله من نسيج الأبوة السوية أما فيما عدا علاقة الآباء بالأبناء فتتفاوت الرحمة في القلوب وتختلف باختلاف الأشخاص وتبعد عن المثال أو تقترب حسب نصيب الإنسان منها .

أما رحمة رسول الله ﷺ فكانت المثال المطلق لكل رحمة والنبع الصافي الفياض لكل متزود ، يفيض سناها على كل من معه وكل ما حوله وهذا أسامة ابن زيد رضي الله عنهما حب رسول الله ﷺ ، وابن حبه زيد بن حارثة الذي اختار رقه لرسول الله ﷺ وبقاءه عنده على حريته وعودته لأبيه وقومه وماله وجاهه وذلك لما وجد في رسول الله ﷺ من معاني الأبوة الحققة والرحمة المطلقة التي يفتقدها بعض الآباء ممن يجهلون مقتضيات الأبوة ومدى حق الأبناء على الآباء ، فما كان من رسول الله ﷺ إلا أن اتخذه ولداً بالتبني فكان يدعى زيد بن محمد إلى أن نزل الوحي بتحريم التبني ، قال تعالى : ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكَ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ﴾ (٤) ادْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَيَاخُوانَكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً (٥) [الأحزاب : ٤ ، ٥] .

أما زيد فهو من قبل العتق وبعده ، وقبل التبني وبعده ، وبعد أن عاد زيد ابن حارثة ، لم تغير تلك المسميات من مكانته عند رسول الله ﷺ إذ هو حبه ، وكفى بها مكرمة تفوق كل المكرمات .

وامتدت تلك المشاعر الصادقة النبيلة التي تشع أبوه عطفه حانية إلى أسامة ابن زيد فإذا به يتوج بأبهي تاج ويزين بأحلى لقب وأكرم « حَبِ رسول الله وابن حَبِ رسول الله » ، وأي حَبِ أعظم من حَبِ رسول الله ﷺ ، إنه ليس مجرد محبة إنسان لإنسان ، إنما هو الدليل والبرهان على حَبِ الله تبارك وتعالى ورضاه ، يا لك من مكرم سعيد الدارين يا حَبِ رسول الله ، كرامة ظلت تحتضن أسامة رضي الله عنه ، حتى أن رسول الله ﷺ لم يشغله مرض الموت وتباريحه عن الدعاء لأسامة ، والوصية به ، بل ويؤمّره على جيش عظيم فيه أكابر الصحابة الكرام رضی الله عنهم أجمعين وهو لم يزل على أول درجات الشباب ، فكان خير قائد لخير جيش ، وها هو أسامة رضي الله عنه الذي يشنا صورة مشرقة تبين حَبِ رسول الله ﷺ له ورحمته به .

عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما : « كان رسول الله ﷺ يأخذني فيقعدهني على فخذه ويقعد الحسن علي فخذه الأخرى ، ثم يضمنا ثم يقول : اللهم ارحمهما فإني أرحمهما » ^(١) .

إن رسول الله ﷺ وهو مبعوث الحق إلى الخلق ، وهو مبلغ غيث السماء إلى الأرض فتحيا بإذن ربها بعد موات ، وهو يربى الرجال والنساء على السواء وهو يخوض المعارك تلو المعارك ليغزو بنور الحق غياهب الباطل ويجلو عن القلوب ظلمات الشرك والكفر بنور الإيمان وعزم اليقين ، وهو يربى الأمة ويرتفع بها حيث ينبغي لها أن تكون .

لم ينسَ مع تلك المسئوليات الجسام أطفال الأمة ، بل اتسع وقته المبارك لحملهم وتدليلهم وملاطفتهم وتعليمهم وتربيتهم ، واتسع قلبه الفياض

(١) البخاري ، باب وضع الصبي على النعش ، كتاب الأدب .

لاحتضانهم وتقبييلهم والدعاء المخلص لهم ، كل هذا فى حنو بالغ ورقة وافرة وحب صادق فى أرقى معانيه ، رسول الله ﷺ يحمل أسامة رضى الله عنه على فخذيه ويحمل الحسن رضى الله عنه على الأخرى .

الحسن بشرفه وعراقة نسبه ، وبياض بشرته ، وعلو مكانته ، واسامة بسواد لونه ورق أبوه وأمة - لولا أنهم عتقاء رسول الله ﷺ - هذا هو الحسن وهذا هو أسامة ، أو هكذا يبدوان فى موازين المجتمع الطبقي الذى للشرفاء فيه الرفعة والسيادة المطلقة ، وإن كانوا هم أنفسهم دون ذلك بكثير ، وللعبيد والموالى فيه المذلة والمهانة المطلقة ، وإن كانوا فوق ذلك بكثير ، غير أن ميزان رسول الله ﷺ على غير تلك الموازين المستبده الظالمة ، إنه ميزان التقوى الذى يزن القلوب لا الأبدان ، ويزن الإيمان لا الألوان ، ويزن العمل لا الجاه أو السلطان ، ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ (١٣) ، أضف إلى هذا أن الحسين بن فاطمة حبيبة رسول الله ﷺ وأسامة بن زيد حب رسول الله ﷺ ، فلا عجب أن يتبوءا فى قلب رسول الله ﷺ نفس المكانة التى يتبوءاها على فخذيه ﷺ .

وتضمهما رحمته ضمة واحدة ، إنه الدفء الحانى يحتضن الأفرخ الزغب فتمنو بين أحضاناه الدفيئة شباباً أصحاباً فى دينهم ، أصحاباً فى تراكيبيهم النفسية والعصبية ، أصحاباً فى أفكارهم ومشاعرهم وانتماءاتهم ، أصحاباً فى تفاعلهم مع المجتمع أخذاً وعطاءً ، ذلك أنهم عاشوا طفولتهم الرائعة بكل مقتضياتها ، مع اعتراف بوجودهم الفاعل وما يتطلبه من حقوق .

هذه هى مكانة الحسن وأسامة رضى الله عنهما من قلب رسول الله ﷺ ،

ما أوفر حظهما ، وما أشرف مكانهما ، وما أرفع مكانتهما رضي الله عنهما ،
وما أوفر حظ أطفال يربون تلك التربية الرائعة ، وما أروع أن يتعلم الأبناء كيف
تكون الأبوة الصادقة ، وما أجدر أن ينهل علماء التربية من ذلك النبع العذب
الفياض الذي لا ينضب أبداً .

صلى الله وسلم وبارك على نبي الرحمة ، مؤسس علم التربية السليمة ،
ومعلم البشرية كيفية الاهتمام بالإنسان في كل أطوار حياته ﷺ .



المبحث الثالث

فجعل يمسح خدي أحدهم

إن رحمة رسول الله ﷺ لأطفال بيته الكرام مدرسة عظيمة يتعلم فيها كل الآباء معنى الطفولة ومقتضياتها ومع ذلك فهي لم تقتصر على أطفاله خاصة ، وإنما احتضنت عامة الأطفال الذين أسعدتهم أقدارهم بوجود رسول الله ﷺ بينهم وهامى قطرة من فيض رحته ﷺ ، تملأ القلوب عبقاً ، وتملأ العقول هدىً ، وتفويض على الكون رحمة وحناناً .

عن جابر بن سمرة رضي الله عنه قال : صليت مع رسول الله ﷺ صلاة الأولى ثم خرج إلى أهله فخرجت معه فاستقبله ولدان فجعل يمسح خدي أحدهم واحداً واحداً وأما أنا فمسح خدي فوجدت ليده برداً كأنما أخرجت من جونة عطار ^(١) .

لك الله يا مساجد الله ، لك الله وقد أغلقت بين الصلوات الأبواب ، وبكى المحراب ، وسخضت المآذن تشكو وتستغيث !! ، لك الله يا مساجد الله حينما يشدو النداء ، فيرتجع خلال الجد ان إذ لا مرابطون ، لك الله يا مساجد الله وقد ثقلت إليك الخطى وتقلصت فيك الصفوف .

أما أنت أيها الفجر الندى ، فلك الله ، ثم لك الله ، ثم لك الله . أيتها الصلاة المباركة الحزينة ، إذ تشهدك الملائكة ، وتغدق فيك الأرزاق ، وتأتى ببسرى ميلاد يوم جديد ، ثم ينادى فيك المنادى حى على الفلاح فينادى الشيطان فى كثير من الآذان ، حى على الرقاد بعد ليل اللهو والمجون ، أما قيام

(١) صحيح مسلم برقم (٢٣٢٩) .

الليل واستغفار الأسحار ، فلا أستطيع له رثاء ، إذ مصابنا فيه فوق كل مصاب وفوق كل رثاء ، إن بيننا وبين مجتمع رسول الله ﷺ بون شاسع وخطب جلل ، قد أصاب العقائد وزلزل القلوب .

إن فجر رسول الله ﷺ والقرون الفاضلة بعده لم يكن يقطأ في قلوب الرجال فحسب ، وإنما كان أسراباً من القلوب النورانية تتسابق إلى رضوان الله تبارك وتعالى يدفعها الإيمان ، ويحدوها الأمل ، وينعشها الرجاء ، تحرص فيه النساء على الخير كحرص الرجال بل ويسبقهم إليه الأطفال ، فأكرم به من مجتمع تنعم برضوان الله عز وجل ، ومع صحابي جليل نعيش لحظات رائعة ، تحكى ملمحاً من طفولته السعيدة المؤمنة .

يخرج رسول الله ﷺ من صلاة الصبح ، فيفيض على المدينة بهاءً ونداً بقلبه المسبح وجوارحه المتوضئة ، ووجهه النوراني ، وجهته المتلالي فيها أثر السجود ولسانه الذاكر ومشاعرة الفياضة فتستقبله الولدان إستقبال الأب الحاني بعد عود حميد من سفر بعيد .

استقبله الولدان كمادة الطفل حين يرفرف قلبه قبل يديه ، وتطوى مشاعره المسافات قبل رجليه مندفعاً نحو من يحنو عليه ، ويترفق به ، قصد الولدان نيع الرى ، ومنبع الحنان ، فاحتض ﷺ مشاعرهم بقلبه الفياض واحتضن أرواحهم بروحه الطاهر ، واحتضن وجوههم بيديه الشريفين واحداً واحداً فإذا به يروى ظمأهم وينعش وجدانهم ، ويغرس الثقة في نفوسهم ، ويؤكد ذاتية كل منهم ، ويزودهم بخير زاد ينطلقون به نحو المستقبل بخطاً ثابتة ونفوس قوية ، متلقين منهج الله سبحانه وتعالى في حب ويقين ، عاملين به في إخلاص وتفان ، حاملين رسالة الله للأمة على خير وجه في الغد القريب ، زادهم التقوى والإيمان وقودتهم الرحمة المهداة والسراج المنير ﷺ .

المبحث الرابع فأسمع بكاء الصبي فأتجاوز في صلاتي

كثيراً ما تكون فظاظة المربي عازلاً للصوت بين لسانه وأذن من يربي ، وعازلاً للتواصل بين قلبه وقلوبهم ، عازلاً للنور بين علمه وعقولهم ، فالمتلقى ليس حائطاً من رخام تنقش عليه طلاسـم ورموز ، وليس وعاءً من خزف نصب فيه أفكار ومعتقدات ، وليس لوحاً ممغنطاً لاخـتزان المعارف والعلوم ، إنما هو إحساس ومشاعر ، وانفعالات وتفاعل مع الأشخاص والأهداف ، والحواجز النفسية التي تنشأ بين المربي ومن يربيهم هي أهم معوقات العملية التربوية ، لذا فقد وجب لنجاحها توافر القدوة الحسنة التي تقدر المشاعر وتحترمها والتي تنتهج المنهج القويم وأساليب التربية الواعيدة الناضجة ، يحدوها الإخلاص في الدعوة والرحمة واللين في المعاملة ، وكلها مقومات تصل بالناشئة إلى قمة ما يصبوا إليه المربي في يسر وبساطه .

وهذا ما صاغه رسول الله ﷺ واقعاً حياً صادقاً مثمراً قبل أن يلقنه دروساً ومحاضرات ، وها هو ﷺ يعطينا صورة صادقة لرحمة المربي العظيم ومدى شففته وحنوه .

عن أبي قتادة الأنصاري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إني لأقوم في الصلاة أريد أن أطولها فأسمع بكاء الصبي فأتجاوز في صلاتي كراهية أن أشق على أمه » ^(١) .

إن رسول الله ﷺ إذ يرحم الرجال والنساء والأطفال وكل من حوله من

(١) البخاري ، باب من أخف الصلاة عند بكاء الصبي ، كتاب الأذان .

مخلوقات الرحمن فلا عجب إذ هو الرؤف الرحيم ، أما أن ينتزعه بكاء صبي من روعة وقوفه بين يدي الله تبارك وتعالى فيتجوز في صلاته وهي قرّة عينه ﷺ ، لذلك أدعى للدهشة والعجب ، إذ أن نبرات الصبي على ضعفها قد اخترقت ذلك الملكوت السامي عبر أثير رحمته ﷺ ، وصولاً إلى قلبه المحوّم حول عرش الرحمن تباركت أسماؤه ، عائدة به إلى التجور ، فرقاً على الصبي وكراهية المشقة على أمة ، ليت الآباء يتعلمون حقيقة الرحمة على الأبناء ، ولت الأزواج يتعلمون حقيقة الرحمة بأمهات أطفالهم ، ولت دعاة الخير وقائدي الركب إلى الله تبارك وتعالى يعون حقيقة الدعوة ومعنى الرحمة فيها .

فرسول الله ﷺ لم ينتهر الأمهات ، ولم يأمرهن بالكمث بأطفالهن في بيوتهن بعيداً عن فيوضات الرحمة في المسجد ، ولم يحطم رغبتهن في الاستزادة من الخير ، والتزود بالروحانيات الراقية ، إذ هي غسيل همومهن وزيت سراجهن ، وزادهن عبر دروب الحياة المليئة بالمعوقات المادية والملهيات البراقة ، إن تربية الأمهات هي الزاد الحقيقي لتربية الأبناء وتوجيههم الوجهة الصحيحة .

وليس النسب في جنان كمثل النبت ينبت في الفلاة وهل يرجى لأطفال كمال إذا رضعوا لخدّ الناقصات ؟

ما الظن بامرأة قلبها معلق بالمسجد ، تتلقى فيه المنهج وتحارب فيه الجهل وتزود فيه من الإيمان والتقوى ، وتغسل فيه الأحزان ، فإذا بجهلها يتحول إلى علم وفقه ، وثرثرتها إلى تسبيح وتهليل ، ونميمتها إلى استغفار وتوبة ، وأنانيتها إلى إحساس بالمسؤولية وتقدير لعواقب الأمور .

أى امرأة تكون ؟ ، وأى زوج تكون ، وأى أم تكون ؟ .

ما الظن بطفل كان المسجد حضائته الأولى ، وكان نور الإيمان مهده الوثير ، تفتحت أذناه على نداء الحق ونور التوحيد ، وتفتحت عيناه على بهاء

الركوع وجلال السجود ، وتفتح عقله على خلق العلم ومجالسة العلماء ،
وتفتح قلبه على روعة الإيمان وجمال اليقين ، أى رجل يكون هذا الطفل
بعد ؟ .

وهل يجد الفساد فيه أى مطمع ، أو يجد الانحراف والضياع إليه من
سبيل ؟ ، إن رحمته ﷻ بأطفال المسلمين فوق كل رحمه ، إذ هم ثروة الأمة
المأمولة ومستقبلها المرجو ، وأملها المنشود ، فهم المزرعة الخصبة ، والنبذة
الليانة ، والزهرة المتفتحة ، والثمرة المرجوة ، هم استمرار الأمة ، وامتدادها
المبارك .



الفصل الخامس

رحمته ﷺ بالخدم والعبيد

- المبحث الأول : إخوانكم خولكم .
- المبحث الثاني : فإنه ولي علاجه .
- المبحث الثالث : اعلم أبا مسعود .
- المبحث الرابع : اللهم كثر ماله وولده .

المبحث الأول إخوانكم خوالكم

صنف من الناس يحسبه البعض نوعاً آخر من المخلوقات ، لا حياة له إلا أشباحاً يتلوى المأ بين أبخرة الطهو ودخان ماء الغسيل ، وغيار تنظيف البيت ورائحة عرق العمل الشاق المتواصل في المزرعة أو المتجر ، أو غير ذلك من الأعمال الشاقة ، مخلوقات ليس لها ثقل اجتماعي ، ولا وجود وجداني ، ولا حق إنساني ، ليس لها حرية التعبير عن نفسها ولا الإحساس بوجودها ولا مجرد الشكوى من متاعب العمل ومذلة السخرة وامتهان المشاعر ، إنما هم سفلة القوم ومظهر من مظاهر الوجهة الاجتماعية لكل سيد استعبد أكبر عدد منهم ، إذ هم ثروة قيمتها الدراهم المستثمرة فيهم ، شأنهم في ذلك شأن مقتنيات الأسرة من متاع وأساس ، بل وأنعام .

صنف من الناس ألجأهم الأسر والاستعباد ، إلى الامتهان والمذلة ، لم يأبه لحياتهم أحد ، ولم يأبه لموتهم أحد إلا على سبيل الخسارة المادية في المال المفقود بموتهم أو الحاجة إلى من يقوم بدورهم في السخرة والاستعباد ، صنف من الناس أخرى بهم إن قالوا ألا يسمعوا ، وإن غابوا ألا يفتقدوا ، وإن خطبوا ألا ينكحوا ، وإن استأذنوا على كبير ألا يؤذن لهم ، هكذا هم في الميزان الاجتماعي ، أو على الأقل في ميزان السواد الأعظم من المجتمع ، ميزان مطفف ونظرة مستبدة ظالمة لأخوة في الإنسانية كان عليهم أن يدفعوا ضريبة فقرهم ، أو سواد لونهم ، أو قلة جاههم ، وكانت الضريبة جد فادحة إذ أنها سحق إنسانيتهم ، وامتهان كرامتهم ، وعدم الاعتراف لهم بأي وجود .

وكان لابد للدين الذي جاء بخير البشرية إذ يؤكد إنسانية الإنسان أيّاً كان لونه أو جنسه أو نسبه وبنظم العلاقات الاجتماعية الإنسانية ، أن يتناول تلك

الشريعة المسحوقة مقررًا وجودها الإنساني ، محدداً مالها وما عليها من الحقوق والواجبات ، موضحاً أسباب المفاضلة بين البشر وميزانها الصحيح ، ميزان الله تبارك وتعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [١٣] الحجرات . [١٣ :

وكان رسول الله ﷺ هو الترجمة العملية لأخلاق الدين الحنيف - كأنما هو قرآن يمشى على الأرض - لذا فقد رغب ﷺ في عتق الإماء والعبيد رحمة بهم فقال : « أيما رجل أعتق امرأ مسلماً استنقذ الله بكل عضو منه عضواً من النار » ^(١) .

هكذا ظل رسول الله ﷺ يرقق القلوب عليهم بل ويدافع عنهم دفاع من حمل على كاهله مسئولية رفع الظلم من المظلومين ، بل وعن الظالمين أنفسهم ومواقفه ﷺ في هذا الميدان منهج كامل لرد إنسانية الضعفاء السلبية رداً جميلاً ورد ظلم الظالم عن نفسه رداً يوقفه على حد إنسانيته فلا يتعداها إلى الوحشية الطاغية وهاك بعضها .

فمن المعروف بن سويد قال : لقيت أبا ذر الغفاري رضي الله عنه وعليه حلة وعلى غلامه حله فسألته عن ذلك فقال : ساءت رجلاً فشكاني إلى النبي ﷺ فقال النبي ﷺ : أعيرته بأمه ؟ (وفي رواية : إنك امرؤ فيك جاهلية) إخوانكم خولكم ، جعلهم الله تحت أيديكم ، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس ولا تكلفوهم ما يغلبهم ، فإن كلفتموهم ما يغلبهم فأعينوهم » ^(٢) .

(١) البخاري ، باب : العتق وفضله .

(٢) البخاري ، باب : العتق وفضله ، باب قول النبي ﷺ : « العبيد إخوانكم فأطعموهم مما تأكلون » .

رأى الرجل أبا ذر رضي الله عنه يلبس حلة ولا غرابة في هذا فهو حر وللحر أن يلبس ما يشاء وقتما شاء ، أما أن يلبس غلامه أختها فهذا ما أدهش الرجل وأثار تساؤله عن العلة الكامنة خلف هذا المنظر العجيب ، إذ كيف لعبد أن يلبس حلة مثل سيده في مجتمع فيه للعبد ما للدابة من حق - هذا إذا اعترف له بحق ! - .

فماذا كان جواب أبي ذر رضي الله عنه ؟ ، سابت رجلاً فشكاني إلى رسول الله ﷺ ، فمن يكون ذلك الرجل ؟ إنه بلال بن رباح عبد أسود ميت في رقه مقبور ، فما ذله معذب بهوانه على الناس ، هكذا كان في الجاهلية رضي الله عنه .

وكان من الممكن أن يحيى حياة العدم ويموت موت الهوام دون أن يشعر به قلب ، أو تسمع به أذن ، أو تطرف له عين ، لولا أن أحياء الإسلام من موات العبودية لغير الله ، بعز العبودية الخالصة لله ، وعز العتق المخلص لله عز جابه ، فكان سيداً عظيماً من سادات الصحابة وكبرائها حتى قال فيه سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه « أبو بكر سيدنا وأعتق سيدنا » بعث بلال بن رباح مرتين حيث حطم رسول الله ﷺ قيد روحه بالإسلام ثم حطم أبو بكر رضي الله عنه بالعتق أغلال جسده بالعتق ، فانطلق عملاقاً قوى الإرادة ، عالي الهمة راقى المطمح .

فإذا بصوته الذي لم يخرج من جوفه يوماً ، ولم يستطع التعبير عن صاحبه لحظة منطلقاً ملء الآفاق بالتكبير يتحدى كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب انطلق الصوت الذي طالما ظل حبيساً لا ليبر عن صاحبه فقط إنما معبراً عن دعوة الحق هدية السماء إلى الأرض .

انطلق الصوت المؤمن الموحد يدكك بمالك الظلم ، ويزلزل عروش الطغاة ، وأنى لهذا الصوت المنطلق أن يسكت بعد وقد أذابت عزة التكبير المطلق لله فيه أى استسلام لظلم ظالم ، أو استكانة لذل كبير .

بعزة المؤمن وإبائه اشتكى بلال أبا ذر رضى الله عنهما إلى رسول الله ﷺ على استطاعة منه أن ينتصر لنفسه بما أتاه الإسلام من عزة في النفس ، وقوة في الحق ، غير أنه أثر انتصار رسول الله ﷺ له وجاء النصر المبين ، جاءت غضبة رسول الله ﷺ لبلال رضي الله عنه ، ولكل بلال أنى وجد إلى يوم القيامة ، وانطلق السؤال المستنكر المعاتب المنعف : أعيرته بأمة ؟ ، أعيرته بسواد بشرتها ؟ ، أعيرته بما لا اختيار له فيه ولا سابق رأى ؟ أقيمت به ميزان الجاهلية القاسط الأعمى ؟ « إنك امرؤ فيك جاهلية » جاهلية الحكم على الظواهر دونما الالتفات لحقيقة الأمور ، جاهلية التقييم المادى للإنسان ، دونما اعتبار لروحه وإنسانيته .

نعم ، هي مقاييس الجاهلية بعينها التي تقيس الإنسان بجاهه أو سلطانه أو ثروته ، لا بقيمته الحقيقية في ميزان الله تبارك وتعالى ، فإذا الرجل بجاهه وسلطانه وسطوته وماله يزن في تقدير المجتمع مثاقيل الجبال ، ثم إذا انقضى عنه كل ذلك لا يزن هو هو وبالميزان نفسه مثقال الذرة أو دونها ، غير أن ميزان الإسلام على غير هذا العتب وذاك الإجحاف إذ هو ميزان القلوب لا الأجساد ، ميزان العقول لا الأموال ، ميزان العقيدة لا الجاه أو السلطان ، ميزان كان فيه ساقا ابن مسعود رضي الله عنه على دقتهمما ونحولهما أثقل عند الله تبارك وتعالى من جبل أحد على ضخامته وامتداده وشموخه ﴿ قُلْ إِنْ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (٧٣) يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٧٤) [آل عمران : ٧٣ ، ٧٤] .

أعيرته بأمة ؟ تعنيف واستكبار اقتلع من قلب الرجل آخر أثر لتحقير جنس أو لون أو ورقة حال .

إذا لم تكن نفس الشريف شريفة وإن كان ذا قدر فليس له شرف .
تقرير ينفي كمال الأبيض لمجرد بياض بشرته ، وينفى عن الحر مطلق

الفضيلة لمجرد أن عافاه الله سبحانه وتعالى من الرق لغيره من البشر ، وينفى عن ذى الجاه مطلق الكرامة لمجرد أن أتاه الله الجاه والسلطان فربما كانت هذه النعم نقمة وحسرة وندامة على صاحبها فى الآخرة .

إخوانكم خولكم : المبدأ العام الذى يحكم العلاقات بين المسلمين هو الأخوة التى لا تلتفت إلى لون أو جنس أو تفاوت فى الطبقات .

الأخوة أولاً ، ثم توزع المقدرات والأعمال بحسب علم الله تبارك وتعالى ومقتضى حكمته فى خلفه ، إذ لم يكن غنى غنيّ لكرامته على الله سبحانه وتعالى ، ولم يكن فقر فقير لهوانه عليه ، إنما هى حكمة الله وسابق علمه لخير عباده .

إن بلالاً وهو فى الأرض من أهل الصُفة ، ليسمع رسول الله ﷺ صوت خطاه ﷺ فى الجنة ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، خادملك فى حسك أيها المسلم ، لا بد وأن يكون أخوك أولاً ثم مساعدك وعونك على قضاء حوائجك ثانياً .

جعل الله تحت يدك فأنت مؤتمن عليه مأخوذاً أو مكافأ به وهذا أدعى أن ترفق به وترحمه ، أو بالأحرى أن ترحم نفسك فيه ومقتضى هذا أن تطعم أحاك مما تأكل ، وأن تلبسه مما تلبس ، وألا يستأثر بخير دونه تعالياً عليه ، أو احتقاراً له ، فتدعى مشاعره وتكسر قلبه ، إذ تشعره بالدونية والصغار ، ولا تكلفه ما لا طاقة له به ، إذ هو بشر محدود الطاقة عادى القدرة مثلك . فإن اقتضى العمل جهداً فوق طاقته فأعنه بنفسك أو غيرك ، كن رحيماً رفيقاً بمقتضى أخوة الإسلام وأخوة الإنسانية فلخادملك المسلم عليك حقوق ثلاث ، حق الإسلام ، وحق الإنسانية ، وحق خدمته لك ومعونته إياك .

كان هذا درساً عملياً حياً تلقاه أبو ذر رضى الله عنه فوعاه حق الوعي وعاش على

هديه ما بقيت فيه حياة ، صلى الله وسلم وبارك على من أرسله ربه رحمة للعالمين ، ورضى الله عن صحابته الكرام الأبرار ، الذى كان قولهم إذ دعوا إلى الله ورسوله أن يقولوا : ﴿ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ [البقرة : ٢٨٥] .

وحيا الله مجتمعاً تراحم فيما بينه واهتدى بهدى نبيه العظيم ، وما أسعد العالم لو تخلق بتلك الأخلاق العظيمة الرفيعة ، إذا لانتهد المآسى واختفت المجاعات وتحرر الرق المقنع وانطفأت نيران الصراع الوحشى على مستوى الأفراد والمجتمعات ، وعمت الرحمة والمودة .

المبحث الثاني فإنه ولى علاجه

كان رسول الله ﷺ حريصاً كل الحرص على مشاعر تلك الفئة من الناس كان حريصاً على جبر كسرهم ، والإحسان إليهم ، وتأکید أحقيتهم في حياة إنسانية كريمة ، حتى إن إحساسه ﷺ بالمسئولية تجاههم كان في داخله - حتى آخر لحظات حياته المباركة - أقوى من آلام النزع وسكرات الموت إذ انطلق من فوق فراش الموت وصية بهم خالدة إلى يوم الدين ، « الصلاة الصلاة وما ملكت أيمانكم » ^(١) .

الصلاة حق لله تبارك وتعالى وهو الغنى العزيز ذو القوة المطلقة وأنت فيها العبد الضعيف الذليل ، ثم ملك يمينك هم الضعفاء الأرقاء وأنت لهم السيد المطاع المالك ، ما أروع أن يقرن رسول الله ﷺ في وصيته الخالدة بين هاتين الصورتين المتباينتين للعبد ، تذكرك صلاتك يا عبداً لله أنك العبد الرفيق ، أمام الرب العظيم بحوله وطوله وسلطانه وقوته وجبروته ، فتضرع إليه ضراعة المسيء الآبق المتزلف ترجو رحمته وتخشى عذابه .

حتى إذا صرت في جاهك وخدمك ومالك ، لم يساورك خاطر التآله على عباد الله والقسوة عليهم والبطش بهم ، حتى وإن كانوا لك رقيقاً وملك يمين ، إذ أنك وما ملكت يداك لله الواحد القهار ، اكسبتك صلاتك معنى العبودية الحققة للمالك المطلق ، ومعنى التواضع الحق للسيد المطلق ، ومعنى الافتقار الحق للغنى المطلق ، ومعنى الضراعة الحققة لرحمن الدنيا والآخرة

(١) صحيح ، جاء عن أم سليم وأنس بن مالك .

ورحيمهما ، فتحى إنسان فى حدود إنسانيتك ، بلا تجبر ولا تكبر ولا قسوة ولا استعلاء لتنال رحمة الله تبارك وتعالى ، وهل يطمع قط غليظ القلب عانى النفس ، قاسى على عباد الله فى رحمة الله ١٩ ، إنها وصية ذكية رحيمة تضع الموازين فى نصابها الصحيح ، فإذا أنت وخدامك أو ملك يملك « كلكم لآدم وآدم من تراب » ^(١) .

إنما هى شجرة واحدة إنسانية المنبت آدمية الجذور وإن تعددت الفروع وتشعبت . بذلك المفهوم البسيط وتلك الحقيقة الواضحة يهدينا أبو هريرة رضي الله عنه زهرة رائعة الحسن فواحة العطر رقيقة الحسن رحيمة تبوح لنا بوصية النبى ﷺ حيث قال : « إذا أتى أحدكم خادمة بطعام فإن لم يجلسه فيناوله لقمة أو لقمتين أو أكلة أو أكلتين ، فإنه ولى علاجه » ^(٢) .

من منطلق الأخوة فى الإسلام فإنما خدامك هو أخوك ، مع تقديم معنى الأخوة على معنى الاستخدام ، وعلى هذا فالأولى بك إذا أتاك أخوك بطعام أن تجلسه معك .

بل هذا هو الأصل ، وذلك رحمة به وتواضعا له ، وتودداً إليه ، سداً لزريرة الحقد والخيانة - إن هى وجدت لديه - فغالباً ما يؤدى تعالى بعض الناس على خدمهم ، والاستخفاف بمشاعرهم ، وامتهان إنسانيتهم إلى استشارة حفائظهم ، وإضمار الحقد والكراهية لمستخدميهم ، فتكون الطاعة خوفاً لا حباً ، ويكون العمل أمراً لا واجباً ، وتكون الخدمة إضطراراً لا ولاءً ، فينعدم الإخلاص ، وتنتفى المحبة ، وربما يؤدى الحسد والكراهية فى نفوس بعضهم إلى إتلاف ما يمكن إتلافه مما تحت يده من مال سيده ، إذ المال غالباً هو جبروت المتجبر

(١) صحيح ، جاء عن أم سلمة وأنس بن مالك .

(٢) صحيح البخارى ، باب إذا أتاه خادمه بطعامه ، كتاب فى الرهن فى الحضر .

وخطرة المتكبر ، فتصبح الحياة بهذه الصورة صراع طبقي وضغائن مدمرة .
 فإن لم تجلس خادماً على العظام معك - لأى سبب بعيداً عن الكبر
 والبطر - فلتناوله لقمة أو لقمتين ، أو أكله أو أكلتين ، وهذا لا يقل روعة عن
 إجلاسك إياه على طعامك ، لأنها تترك فى نفسه أجمل الأثر وأروعة نتاجهك ،
 وكونك تتناوله أنت بنفسك توداً ورحمة ، فهذا تأكيداً للأخوة بينكما ،
 واعترافاً بالجميل ، ووفاءً له على الجهد والمشقة ، إذ هو الصانع المعالج لذلك
 الطعام .

المبحث الثالث

اعلم أبا مسعود

إن أى نظام من النظم الاجتماعية التى تقرر لها الطبول ، حاول أن يقضى على الطبقية المقيتة فى المجتمع الواحد ، أو بين المجتمعات المختلفة ، ظلت نظرياته واقتراحاته طى الكتب أو دفيئة الأدراج ، إذ كلما حاولت الخروج إلى عالم التطبيق باءت بالفشل الربيع إذا اصطدمت بواقع الإنسان المادى الذى لا تحرّكه من داخله عقيدته أو يوقفه عند الحق وازع من ضمير ، أو تثنيه عن الظلم مخافة رقيب .

أما منهج رسول الله ﷺ فهو المنهج الربانى الذى يقضى على ظلم الطبقية البشع ، إذ أنه يعزف على أوتار التقوى والخوف والرجاء والثواب والعقاب وتلك الأوتار الحساسة يدفع بعضها الإنسان مختاراً محباً لتطبيق منهج الله تبارك وتعالى ، واستجاباً لمرضانه ، ويدفع بعضها الآخر الإنسان ، إلى التزام المنهج ، درءاً لغضب الله عز سلطانه ، واجتناباً لسخطه ، ويجتاحى الخوف والرجاء يسمو المجتمع إلى آفاق المحبة والصفاء والتكامل ، فَيَصْطَلُّ إِلَى مُقْعَصِي مَا تُحْصِبُو إِلَيْهِ الإنسانية من كمال . والحديث الشريف الذى بين أيدينا الآن ، يعزف على أوتار الخوف من الله سبحانه وتعالى فى نفس المؤمن ، بعد أن كان قد عزف على أوتار الرجاء فى الأحاديث السابقة .

« عن أبى مسعود الأنصارى قال : بينا أنا أضرب غلاماً لى ، إذ سمعت صوتاً من خلفى - اعلم أبا مسعود - مرتين ، فالتفت فإذا رسول الله ﷺ فألقيت السوط من يدى ، فقال : « والله لله أقدر عليك منك على هذا » (١) .

الله أكبر ، إن دعوة رسول الله ﷺ ، جاءت مناهضة للظلم والظالمين ، جاءت نصراً للضعفاء المقهورين ، جاءت نذيراً للظلمة القاسية قلوبهم ، الذين اعتالوا إنسانية الضعفاء ، فأهدروا كرامتهم ، وتعاموا عن الحق فلم يروا إلا أنفسهم ، فتكبروا وتجبروا وتعاضوا حتى صدقوا إفكهم ، فنصبوا أنفسهم آلهة يحاسبون ضعفاءهم بلا رحمة ، ويعاقبهم بلا شفقة ، ويلتذون بعذابهم ، إذ يطربهم صوت الشياطين على ظهورهم ، ولا يرضى غرورهم إلا صوت الأنين المحموم المكتوم داخل قلوب المقهورين ، ونظرات الاسترحام الكسيرة خلف دموعهم .

كان رسول الله ﷺ الرحمة التي تحمي الضعفاء المكسورين من الظلمة الجبارين ، بل وتحمي الظلمة أنفسهم من عواقب ظلمهم ، وبشاعة استبدادهم ، وها هو أبو مسعود الأنصاري رضي الله عنه يضعنا أمام صورة حية توضح كيف كانت العلاقة بين السيد الجليل المهاب ولامه الضعيف الدليل ، الذي لا سند له في الحق ولا نصير ، ويسمينا قعقة السوط الغاشم المستبد على الظهر المستكين الكسير .

صورة تروى مأساة البشرية ، وتجسد قانون الغاب ، بين قاهرين لا يصددهم عن القهر صاد من داخلهم أو خارجهم ، ومقهورين لا يجدون لهم ولياً ولا نصيراً من داخلهم أو خارجهم .

رأى رسول الله ﷺ تلك المأساة التي تصور ذبح الإنسانية على أعتاب الظلم والجبروت ، انطلق صوت رسول الله ﷺ لينتشل المعذب من عذابه . وينتزع الجبار من ظلمه وجبروته . إذ الصوت أسرع في النجدة من الخطي ، انطلق الصوت الحاني الرحيم متوعداً ومحذراً « اعلم أبا مسعود » نداء زلزل الرجل فانفتت سريعاً صوب الصوت ، فإذا رسول الله ﷺ بهيبته قد انتزع السوط من يد الرجل - وإن كان هو الذي ألقاه - « اعلم أبا مسعود أن الله أقدر عليك

منك على هذا .

كيف أعطيت نفسك حق تعذيب هذا الغلام على إساءة أو تقصير لمجرد أن اشتريته بدراهمك والله سبحانه وتعالى أوجدك من العدم لا من السوق ، ومن عليك بالنعمة العظيمة التي ما راعيت حقها ، وما أديت شكرها ، وإنما تكبرت وتجبّرت بها ، تجهل في النهار فيحلم الله سبحانه وتعالى عليك وتسيء في الليل فيستر عليك ويزقك أطعت أم قصرت أم عصيت ، حتى إذا عدت إليه قبلك ، وإذا استغفرته غفر لك ، وأحسن إليك ، وهو الغني عنك ، وهو الذي إذا أخذك لن يفلتك .

﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ [النحل : ٦١] .

ورغم هذا يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل ، كان الأجدر بك أن تتجاوز عن إساءة غلامك الضعيف لديك ليتجاوز الله عن إساءتك ، كان الأولى بك أن ترحمه وأنت مثله مخلوق ضعيف ذليل ، ليرحم الله تبارك وتعالى ضعفك وذلك بين يديه ، إذ لا ناصر لك ولا شفيع إلا بإذنه .

عظة بليغة أوقفت الرجل على حقيقة طالما اختبأت منه خلف فكر المجتمع الظالم المستبد ، فأجلت تلك الظلمة عن قلبه ، وانتزعت من حناياه آخر ذرة من الكبر والبطر والجبروت ، درس رائع عظيم ، إذا وعته الأمة أثمر في قلبها الرحمة والرفقة وأورق العود وطاب الثمر ، فلا نجد إلا مجتمعاً فاضلاً راحماً متراحماً .

المبحث الرابع اللهم أكثر ماله وولده

عشنا مع رسول الله ﷺ وهو يرسى القواعد الأخلاقية في المجتمع الإسلامي ، وينظم العلاقة بين أفرادهِ وجماعته على أساس من التراحم والأخو والتسامح ، أما الآن فقد آن لنا أن نعيش معه ﷺ المثل الحي لدعوته المباركة ، والقُدوة الحسنة لكل متخلق بأخلاقه ومقتدٍ بشخصه الكريم . يصحبنا تلك اللحظات الرائعة أنس بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قائلاً : « خدمت النبي ﷺ عشر سنين فما قال لي أف قط ولا لم صنعت ولا ألا صنعت » ^(١) .

من الذي يصحبنا تلك اللحظات الرائعة في بيت النبوة الطاهر الكريم ؟ ، إنه سيدنا أنس بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، خادم رسول الله ﷺ شاهد الصدق ، ودليل الحق - وحاش لرسول الله ﷺ أن يعوزنا فيه شاهد أو دليل - .

إن رحمة رسول الله ﷺ بخادمه رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لم تقف عند مشاركته إياه في المطعم والملبس ، وتكليفه قدر طاقته وحسب ، إنما تعدت ذلك إلى ما هو أسمى وأجل ، إلى ما هو أوسع رفقا وأعلى رحمة وأرفع تكريماً وأروع إحساناً ، خدم أنس بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ رسول الله ﷺ عشر سنين هي مدة إشراقه المبارك على المدينة المنورة .

خلال عشر سنين من المعاشة التامة ، والمخالطة الدائمة ، ما قال رسول الله ﷺ لخادمه أف قط ، فضلاً عن التعنيف أو السب أو الضرب والإيلام ، ما ضاق به يوماً ولا اعترض على فعل أو تركٍ ، بل أعطاه الثقة بنفسه ، وحرية

(١) صحيح البخاري ، باب حسن الخلق والسجاء وما يكره من البخل ، كتاب الأدب .

التصرف ، وجراً الاختيار على صغر سنه وحداثة خبرته ، فكان أنس رضي الله عنه خير خادم لأكرم مخدم ، غير أنه لأبد قطعاً أن يحدث خلال عشر سنوات تصرفات قلت أو كثرت من أنس يمكنها أن تستثير غضب رسول الله ﷺ ، أخطاء لم يتعمدها أنس بالطبع وإنما أتت من جهة اختلاف وجهات النظر ، أو فهم لأمر ما على خلاف ما أراده رسول الله ﷺ ، أو أى شيء من هذا القبيل ، لكن رسول الله ﷺ أغضى تفضلاً وإحساناً ورحمة وتعليماً للأمة ، كيف يكون العفو عند المقدرة ، وكيف يكون ضبط النفس عند الغضب ، وفوق هذا كيف يكون الإحسان مقابل الإساءة ؟ ولم لا وهو يستحث المؤمنين صباح مساء .

﴿ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٣) الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤) ﴾ [آل عمران : ٣٣ ، ١٣٤] .

ما أعظمها من رحمة فياضة ، وما أكرمها من أخلاق فاضلة ، لم تظل نظريات جوفاء ، ولم تبعثر في خطب رنانة ، إنما كانت واقعاً يحياه المجتمع الفاضل تأسيساً بالمربي الكريم ، والنبي الرحيم محمد بن عبد الله رحمة الله للعالمين ﷺ ، الذي ظل يعمل جاهداً على غرس روح الأخوة والمحبة والتراحم في المجتمع وتطهيره من معنى الطبقيّة القائمة على أساس المفاضلة بين الناس بالمال أو الجاه ، أو الوجاهة الاجتماعية ، أو غير ذلك من عرض الدنيا غير أنه ﷺ كان يدعو دائماً إلى العمل والإيجابية والجد والاجتهاد ، ناهياً عن التواكل والسلبية والإنسحاب من معترك الحياة ، إنما يعمل الإنسان جهده ويذل طاقته في تحصيل رزقه المادى والعلمى ، إذ الأخذ بأسباب القوة العلمية والمادية من دواعي الضرر والتمكين للأمة المسلمة ، ولهذا نراه ﷺ لم يبعد عن هذا حين طلبت منه أم سليم رضی الله عنها أن يدعو لابنها أنس ، إذ قالت : « أس خادملك ، أدع الله له ، قال : اللهم أكثر ماله وولده وبارك

له فيما أعطيته ، (١) .

إن قلة المال أو الجاه تضطر صاحبها أن يعين موسر بنفسه على قضاء حوائجه مقابل أن يعينه ذلك الموسر بماله على متطلبات الحياة ، ولهذا فالخادم دائماً أقل مالاً وأضعف جاهاً ومن هنا جاءت دعوة رسول الله ﷺ لأنس رضي الله عنه بكثرة المال والولد ، وهذان يكسبان الرفعة والسيادة في المجتمع ، وإن كان سيذا على الحقيقة بصدق إيمانه وعظيم علمه الذي تلقاه من متلقى الوحي مباشرة ﷺ وبخدمته لسيد الخلق ﷺ وكفى بها عز وشرف ، فإنني لا أشك في أن أي مسلم صادق الإيمان ليتمنى لو باستطاعته أن يشرف بخدمة خادم رسول الله ﷺ فذلك شرف الدهر وعزة .

وقد تحققت دعوة رسول الله ﷺ لأنس رضي الله عنه بفضل الله تعالى ومنه ثم بدعاء رسول الله ﷺ له وإيجابية أنس رضي الله عنه في السعي والجهد ، فكان ماله وولده من الكثرة بمكان .

ولإن كانت دعوة رسول الله ﷺ لأنس رضي الله عنه هي كثرة المال والولد ، وهو كما نرى مطلب دنيوي فذلك أن أنساً رضي الله عنه كان مؤمناً صادق الإيمان ربما زاده المال والولد تقرباً إلى الله عز وجل بإنفاقه المال في سبيل الله ، وجهاد بنيه لإعلاء كلمة الله عز سلطانه والمال الصالح والولد الصالح يكونان في ميزان الرجل الصالح يوم القيامة يزيداه خيراً على خير ودرجة فوق درجته .

هذا هو شعور رسول الله ﷺ تجاه خادمه ، وتلك رحمته ﷺ به وبأمه أم سليم رضي الله عنهما ، وجمعنا بهما في دار كرامته - وإن كان البون بيننا شاسع والهوة سحيقة - .

(١) صحيح البخارى ، باب الدعاء بكثرة المال مع البركة ، كتاب الدعاء .

الفصل السادس رحمته ﷺ بغير المسلمين

- المبحث الأول : إن شئت أن أطبق عليهم الأخشيين .
- المبحث الثاني : أطلقوا ثمامه .
- المبحث الثالث : نعم صلى أمك .
- المبحث الرابع : الحمد لله الذي أنقذه من النار .
- المبحث الخامس : وألبسه قميصه .

المبحث الأول إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين

الظلم كلمة مقزرة كريهة الطعم واللون والرائحة ، حسكية الملمس ، شيطانية المنظر ، لا تصدر عن قلب فيه حياة ، وهل لقلب ينبض بحياة أن يتلذذ بظلم الآخرين والإجحاف بهم ؟ هذا والله بشع مرير .

أما الأدهى والأمر فهو أن يظلم الإنسان نفسه ، ذلك أن الظالم غيره إنما يرضى بهذا الظلم نفسه ، ولكن أن يظلم هو نفسه فتلك كارثة الكوارث وأم المصائب ، أما إن يتدنى ظلم الإنسان لنفسه فينزلها منزلة دون الأنعام ، أما أن يمتنن عقله الذى كرمه الله تبارك وتعالى فيجعله دون السفاهة بدركات ، أما أن يستذل جبهته التى خصها الله تبارك وتعالى بالشموخ والرفعة ، فيهوى بها ساجداً لحجر أو شجر أو بشر ، فذلك ما لا طاقة للعقل على استساغته .

إن إنساناً بتلك السفاهة ما نال من الإنسانية إلا اسمها ، وما حظى من البشرية إلا رسمها ، وما زاد المخلوقات إلا مخلوقات شائها قبيح النفس مطموس البصيرة غير خليق أن يرحمه أحد ذلك أنه لم يرحم نفسه ولم ينزلها حيث أنزلها الله تبارك وتعالى فحق له الاتمهان والتحقيق والقسوة أو هكذا يكون نصيب منا كبشر عاديين ، أما رسول الله ﷺ فمقاييسه وتقديراته تختلف إذ هو الطبيب المنوط به معالجة المرضى. وإن استعصى العلاج ، والسراج المبعوث لهداية الضالة رغم مكابرتهم وحرصهم على الضلال ، والدليل الذى يتوغل فى صحراء التيه ليهدى التائهين ويرد الشاردين ويستنقذ المغررين .

لهذا كان فيض رحمته ﷺ بتلك الفئة الضالة ، إذ يلين لهم الجانب ضنا بهم على النار ، ويتودد إليهم علمهم يثوبوا إلى رشدهم ويرتفعوا على انحطاطهم فى مستنقعات الكفر والشرك والضلال ، آذوه فى نفسه وعرضه وماله ، وهو

يحاول جاهداً رفع الأذى عنهم ، أغروا به سفهاءهم ، وهو يحاول درأ السفاهة عن عقولهم ، حاولو جاهدين إطفاء نور الحق الذى جاء به ، وهو يجهد نفسه أن يضىء به قلوبهم ، فعدوا له كل طريق ليصدوا عن سبيل الله وهو ما برح يدعوهم إليه رموه بالشعر والسحر والكهانة والجنون ، فلا يزداد مع افتراءهم إلا حرصاً عليهم ، ولا يزداد مع قسوتهم إلا رحمة بهم ، ولا يزداد مع جهلهم عليه إلا حلماً عليهم ، ولا يزداد مع نفورهم عنه إلا تودداً لهم وترفقاً بهم ، وكلما دعاهم إلى الله عز وجل أشعلوا عليه حقد قلوبهم ، وشحذوا له صوارم ألسنتهم وأطلقوا أيديهم الآثمة بالإيذاء فرموه بالحجارة حتى أدموه - فداء نفسى - وهو لا يفتر عن الدعاء لهم « رب اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون » (١)

كان ﷺ مع كل هذا حريصاً عليهم كل الحرص حزناً على عنادهم أشد الحزن حتى عاتبه الله تبارك وتعالى فيهم بقوله : ﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء : ١٠] .

جلست عائشة رضى الله عنها جلسة حب ونسجت خيوط حوار دافئ الحروف شفيق المعنى ودود المرمى تسترجع به مع رسول الله ﷺ مرحلة من مراحل كفاحه المتواصل لتبليغ دعوة الحق إلى الخلق ؛ فسألت رسول الله ﷺ بمشاعر الزوجة الرائعة المحبة التى يود أن تحبى عمر زوجها لحظة لحظة ، وتتجول فى أيامه خطوة خطوة ، وتحتضن مشاعره بوجدانها الفياض ، فتحبى أحزانه التى لم تدركها ، وتسعد لسعادته التى لم تعاصرها ، وتمسح بدفء حنانها بصمات المآسى التى ما ملكت دفعها عن قلبه حيث قالت :

« يا رسول الله ، هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد ؟ ، فقال :

لقد لقيت من قومك ، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة ، إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال فلم يجبنى إلى ما أردت ، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي ، فلم أستفق إلا بقرن الثعالب ، فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظلتني ، فنظرت فإذا فيها جبريل فناداني ، فقال : إن الله عز وجل قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك ، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم ، قال فناداني ملك الجبال وسلم عليّ ، ثم قال : يا محمد إن الله قد سمع قول قومك لك ، وأنا ملك الجبال وقد بعثنى الله إليك لتأمرني بأمرك ، فما شئت ؟ إن شئت أن أطبق عليهم الأخشيش ، فقال له رسول الله ﷺ : بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده ، لا يشرك به شيئاً ^(١) .

إيه قريش ... !!

في الحلق منك غصبة

والقلب جد مقرح

واليك لا أدرى

على أى المذاهب أسبح

أعليك أم منك

الفؤاد على البكا لا يبرح .

إيه قريش : أعليك أبكى الإصرار على الكفر والضلال ، والنأى عن طريق

الحق والعمى عن نور اليقين ؟ ! .

(١) البحارى ومسلم اللفظ للبخارى ، باب إذا قال أحدكم آمين ، والملائكة أمين فوافقت إحداهما الأخرى ، كتاب بدء الخلق .

أم منك أبكى الجحود والإساءة ، والصبد عن سبيل الله عز وجل ؟ .
 أعليك أبكى سفاهة الأحلام ، وجهالة الأنعام ، وكفر الإنعام ؟ .
 أم منك أبكى عداك للدين ، وتعذيب المؤمنين وسحق المستضعفين ؟ .
 أعليك أبكى خسران الدنيا والآخرة ؟ . أم منك أبكى إيذاء رسول الله ﷺ
 ومطارده والوقوف له بكل سبيل ؟ ، فداه أبى وأمى .

هذه قريش التى اختصتها رحمة الله تبارك وتعالى بما لم تختص به أحد
 من العالمين ، محمد بن عبد الله ﷺ الممتد النسب فيهم ، الصادق بينهم ،
 المؤمن لديهم ، هذا هو ابن عبد الله ﷺ ، جاءهم يحمل بإحدى يديه جنة
 عرضها السموات والأرض ، ويدراً بالأخرى عنهم ناراً وقودها الناس والحجارة ،
 فلا هم تزودوا التقوى سباقاً إلى الجنة ، ولا هم تعافوا الكفر فراراً من النار ،
 إنما هم السفهاء العميان ، تهاووا عناداً واستكباراً فى الجحيم ... ليس وحسب ،
 وإنما صدوا عن الجنة من يأوى إليها وقعدوا لهم كل طريق ليس هذا وحسب ،
 وإنما امتدت سفاهتهم بالسوء لمن جاءهم بخيرى الدنيا والآخرة فأذوه
 وحاصروه وطاردوه ونالوا منه كل جهد حتى ألجأوه ﷺ إلى الطائف فنال منهم
 ما كان أشد عليه من يوم أحد . فداه ﷺ كل ما يفتدى به .

وما أدراك يوم ما أحد ؟ ... يوم خالفه الرماة وانهزمت عنه المحاربة ، وفجع
 بسبعين من أكرم صحابته على الله وعليه ، وكسرت رباعيته ، ودمى وجهه ،
 وانكسرت بيضته على رأسه ، فوق كل هذا قتل حمزة بن عبد المطلب ،
 وبقرت بطنه ونزعت كبده ، ومثل به أبشع التمثيل !! .

ومن حمزه ؟ إنه أسد الله وعم رسول الله ، وعزة الإسلام ومنعة المسلمين .
 مصائب بعضها فوق بعض ينوء بها كاهل الجسد الصبور وتنقطع لها نياط
 القلوب وتفتت لها الأكباء ، لهذا ظنت عائشة رضى الله عنها أن هذا أقسى ما

مر برسول الله ﷺ من أهوال .

لكن جحود قريش كان أقسى وعنادها وكفرها كان أشد ، وإيذاءها إياه أدهى وأمر ، حتى خرج ﷺ يلتمس النصرة والمنعة في الطائف فما وجد عندهم أفضل مما لدى قريش ، فكان كالذي استجار من الرمضاء بالنار ، وانطلق رسول الله ﷺ مهموم القلب كسير النفس ، مقطوع الرجاء إلا من الله عز وجل .

وما كان الله جل في علاه ليترك صفية وحبيبه ، فإن تك أحقاد الأرض قد اشتعلت عليه ، فقد أظلمت ملائكة السماء ، وإن صفدت أمامه كل أبواب الأرض ، فما هي لم تغلق قط أبواب السماء ، وإذ بروح القدس أمين السماء ﷺ يبشر أمين الأرض بمدد السماء - ملك الجبال - وفي أقل من طرفة عين يدكدك الأعناق المتطاولة ويسحق الأنوف المعرضة .

في الأقل من اللاوقت يطبق الأخشبين وتنتهي المأساة .

يا لنصرة المظلوم وخيبة الظالم ، يال الأخذة العادلة جزاء الظلم والمطاردة والملاحقة بكل أنواع الأذى والعذاب ، يا لعدالة السماء في المعرضين عن غيث السماء ، يا بشري مصرعكم أيها الجبابرة الغاشمين القساة .

إنه القصاص العادل ، جزء من لحظة تستريح منكم البلاد والعباد وتسعر بكم الجحيم ، فقط ما شئت من أمر بإذن الله يكون ، ولو أبدى رسول الله ﷺ موافقة لقضى الأمر ونحسر هنالك المبطلون .

لكنه رسول الله ﷺ ورحمته للعالمين وفيض إحسانه على البشرية جمعاء لم يكن جوابه في أقسى لحظات حياته المباركة وأشدّها إيلا ما لقلبه الطاهر وجسده الشريف إلا رحمة بالقوم وأملًا في ذرايبهم - إذ عدم فيهم الخير - .

« بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً » ، أمنية تمنّاها رسول الله ﷺ بنور النبوة ، فأخرج بها الله تبارك وتعالى

من أبى جهل لعنه الله ، عكرمة بن أبى جهل رضي الله عنه ، ومن الوليد بن المغيرة لعنه الله ، خالد بن الوليد رضي الله عنه ، ومن أمية بن خلف لعنه الله ، صفوان بن أمية رضي الله عنه .

أى رحمة تلك ؟ ، أى إخلاص فى الدعوة هذا ؟ ، أى حرص على إعلاء كلمة الحق ، وأى عزم فى التبليغ ؟ ، أى احتمال للأذى والعذاب ؟ ، وأى صبر على الكفر والعناد ؟ ، أى إنسان يكون ؟ ، إنه رسول الله ﷺ .
﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [الأحزاب : ٥٦] .



المبحث الثانى أطلقوا ثمامه

الحديث عن قريش حديث ذو شجون ، والحديث عن رحمة رسول الله ﷺ بهم وعفوه عنهم ، وصبره عليهم ، حديث أنجاد وجذاب للقلوب والعقول .
ومواقف رسول الله ﷺ فى هذا المضمار ، أكثر من أن يحويها كتاب أو عدة كتب ، ولكن حسبنا وقفة مضيئة أشرف علينا بها أبو هريرة رضي الله عنه وهو دائماً مشرق وضئ .

« عن أبى هريرة رضي الله عنه قال : بعث النبى ﷺ خيلاً قبل نجد فجاءت برجل من بنى حنيفه يقال له ثمامة بن أثال ، فربطوه بسارية من سواري المسجد ، فخرج إليه النبى ﷺ فقال : ما عندك يا ثمامة ؟ فقال : عندى خير يا محمد ، إن تقتلنى تقتل ذا دم ، وإن تنعم تنعم على شاكرك ، وإن كنت تريد المال فسل منه ما شئت . فترك حتى كان الغد ثم ، قال : ما عندك يا ثمامة ؟ قال : ما قلت لك ، إن تنعم تنعم على شاكرك ، فتركه حتى كان بعد الغد ، فقال : ما عندك يا ثمامة ؟ فقال : عندى ما قلت لك ، فقال : أطلقوا ثمامة .

فانطلق إلى نخل قريب من المسجد ، فأغتسل ثم دخل المسجد فقال : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، يا محمد ، والله ما كان على الأرض وجه أبغض إليّ من وجهك وقد أصبح وجهك أحب الوجوه إليّ ، والله ما كان دين أبغض إليّ من دينك ، فأصبح دينك أحب الدين إليّ ، والله ما كان بلد أبغض إليّ من بلدك ، فأصبح بلدك أحب البلاد إليّ ، وإن خييلك أخذتنى وأنا أريد العمرة ، فماذا ترى ؟ .

فبشرة رسول الله ﷺ وأمره أن يعتمر ، فلما قدم مكة قال له قائل :

صهيون ؟ قال : لا ، ولكن أسلمت مع محمد رسول الله ﷺ ولا والله لا يأتيكم من الإمامة حبة حنطه حتى يأذن فيهله النبي ﷺ » (١) .

ثم عاد إلى الإمامة فمنع قومه أن يحملوا إلى مكة شيئاً فكتبوا إلى النبي يقولون : إنك تأمر بصلة الرحم ، فكتب لثامه أن يخلي بين قومه وبين الحمل إلى أهل مكة .

أهذا حلم على حماقة قريش ؟ ، أهذا عفو القادر عند المقدرة ؟ ، أهذا صبر على أذى الأعداء ؟ ، أ هذه رحمة بالمشركين الذين آذوا النبي ومن معه ، وأخرجوهم من مكة ؟ إن عمل النبي هنا يجمع هذه الفضائل كلها » (٢) .

حيث يطلق أسيره تكرماً وإنعاماً ، ثم يأمره - بعد إسلامه - أن يخلي بين حنطه الإمامة وبين أهل مكة .

إن رسول الله ﷺ لم يأمر ثمامة - بداية - أن يمنع القمح عن مشركي مكة ، لكن إسلام ثمامة هو الذي دفعه إلى معاقبة قريش بما يستطيع أن يعاقبها به جزاءً لها على بغيتها ومحاربتها للمسلمين ، وتخريشها الدائم بهم ، وقد كان من حق ثمامة أن يفعل ذلك ، لأن قريشاً مع المسلمين في حرب متصلة ولأن قريشاً قد استباححت لنفسها من قبل أن تقاطع المسلمين ، وأن تحصرهم في شعب بنى هاشم بمكة ، وأن تتعاقد على تجويعهم ومقاطعتهم ، وهي لا تزال جادة في إنزال الأضرار بهم ما وجدت إلى ذلك سبيلاً .

» لكن رحمة النبي ﷺ كانت أعلى من الخصومة ، وأرفع من العداوة ، وأعظم من مقابلة التجويع بمثلته ، فإنه لم يكذب يقرأ كتاب قريش ، حتى أرسل إلى ثمامة أن يخلي بين قريش وبين حنطه الإمامة ، وهو يعلم أن تجويع قريش

(١) البخاري ، باب وفد بني حنيفة ، كتاب المغازي .

(٢) من أخلاق النبي ﷺ . د / أحمد الحوفى .

يضعفها أشد الضعف ويقيه شرورها» ^(١١) .

إن رحمة رسول الله ﷺ أبت إلا أن ترحم من صد عن سبيل الله وعذبوا أصحابه ، فجلدوهم وصلبوهم ، وسملوا أعينهم ، وقيدوهم في صحراء مكة الملتهبة ، جوعاً عطاشاً محترقين ، ومزقوهم كل ممزق .
لا لشيء إلا أن يقولوا ربنا الله .

بعثت قريش إلى رسول الله ﷺ تناشده الرحم التي طالما وصلها فقطعوها ، وطالما ناشدهم إياها فمزقوها كل ممزق ، لكنه محمد رسول الله ﷺ الذي ما قابل الإساءة يوماً إلا بالإحسان وما قابل الظلم أبداً لها بالعفو والصفح الجميل ، وما قابل القسوة إلا بالرحمة ، ولا الجهالة إلا بالحلم العظيم .

لابدع أن ملك القلوب بلطفه وبماله والعطف والرحمات
وغدت له في الناس أعظم هيبة ومحبة فاقت عن المهجات



المبحث الثالث نعم صلى أمك

لم تك رحمة رسول الله ﷺ بقريش لأنهم قومه وخاصته ، وإنما لأن الرحمة خلقت أصيل في بنائه الأخلاقي .

كانت رحمته بهم رجاء أن يرحموا هم أنفسهم ، فيثوبوا إلى رشدهم ، ويؤمنوا بربهم أو إن فاتتهم هذه مغساها تدرك من يخرج من أصلابهم ، وهامى أسماء بنت أبي بكر رضى الله عنها تحدثنا عن رسول الله ﷺ قائلة :

« قدمت على أمى وهى مشركة فى عهد رسول الله ﷺ فاستفتيت رسول الله ﷺ قلت : إن أمى قدمت وهى راغبة أفأصل أمى ؟ ، قال : نعم ، صلى أمك » ^(١) .

أسماء ذات النطاقين ، بنت الصديق أبى بكر ، أخت الصديقة عائشة ، زوج الزبير حوارى رسول الله ﷺ ، أم عبد الله بن الزبير أول صبرى ولد بعد الهجرة للمسلمين ، المقدام الشجاع العالى فى الحياة وفى الممات .

سمو فى الحياة وفى الممات لعمرك أنت إحدى المعجزات
أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنها ماسية الأصل ذهبية الفرع ، المؤمنة الصادقة المؤتمنة على سر الهجرة النبوية المباركة ، وناقلة الزاد للمطاردين إذ هما فى الغار .

أسماء بنت الصديق أمشركة أمها ١٢ ، لا عجب فقد حسم الله تبارك وتعالى تلك القضية بقوله لرسول الله ﷺ : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ

(١) البخارى ، كتاب الجهاد والسير .

اللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ [القصص : ٥٦] ، فما الظن بمن هو دونه ؟ ، ما أقسى ضلال الأجنة على قلب محبيهم ، ما أقسى أن تفتح للأجنة نافذة الحق لتضيء لهم طريق الهداية فإذا بهم قد خمروا عقولهم ، وأطبقوا على الظلمة أجفانهم ، ووضعوا أصابعهم فى أذانهم ، وتواصوا على المكث فى ليل الضلالة وأصروا واستكبروا استكباراً .

ماذا تملك أسماء المؤمنة المتهتدية ذات الأيادى البيضاء فى الإسلام لأمرها المشتركة الضالة المعرضة إلا اعتصار الألم ، وحزن الشفقة ، ودمع الرجاء ، جاءت الأم بجفاف عودها الذى طالما اعتصرته لتروى به عود ابنتها ، جاءت بارتعادات يديها التى طالما أعملتهما فى تربيتها وخدمتها .

جاءتها بذبول عينيها التى طالما أسهرتها على راحتها .

جاءتها بقلبها الذى طالما حملتها فيه ألماً وأملأ .

جاءتها ترجو برها وتؤمل حق الأمومة عليها .

وتلقته أسماء رضى الله عنها بكل مشاعرة البنوة البارة ، ودت لو احتوتها بين زراعيها وضمتها بقلبها وأذابت بحرارة الشوق برودة الفرقة وجمود المفاصلة ، ازدحمت فى قلب ذات النطاقين مشاعر الشوق والبر والحزن والرجاء والولاء للإسلام والبراء من الشرك والمشركين .

• هى أمها نعم ، ولها حق البر نعم ، غير أن هناك من هو أحق بالبر والولاء إنها العقيدة أقرب النسبين والصقهما بالمؤمن الصادق الإيمان ، هرعت أسماء رضى الله عنها تبث رسول الله ﷺ حزنها ، وتصور مشاعرها إلتماساً للخروج من الحيرة « إن أمى قدمت عليّ وهى راغبة ، أفأصل أمى يا رسول الله ؟ » ، إنها أمى يا رسول الله ، أمى بكل ما للأمومة من معان وحقوق ، وأنا ابنتها بكل ما فى البنوة من مشاعر وواجبات ، أفأصل أمى ؟ أيسمح لى الإسلام فى صلتها

وبرها وجبر خاطرها ؟ ، أسمح لى العقيدة بتلك المشاعر الفطرية النبيلة تجاهها ؟ ، أم أن شركها حائل بينى وبينها ؟ .

يا لروعة المؤمن الوقاف على حدود الله ؟ الوقاف على حدود الشرع وإن كانت ضد رغباته ومخالفة لهواه ، لم تقدم أسماء رضى الله عنها على صلة أمها إلا أن يأذن رسول الله ﷺ ، وهنا جاءت المشاعر المحمدية ، الرحمة الفياضة تحفظ للمشاعر الإنسانية حقها ، وتحفظ للعلائق الأسرية ترابطها وقوتها .

قال نعم ، صلى أمك ، صلى أمك ، لأن الإسلام يحفظ لكل ذى حق حقه حتى وإن كان صاحب الحق مشرك ، حتى وإن جاهدك على الشرك كيف لا وهذه هى أخلاق الإسلام ، ووصية القرآن ، ﴿ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴾ [لقمان : ١٥] .

نعم صلى أمك يا ابنة الصديق ، ما أرحم الإسلام ، ما أرحم نبي الإسلام ﷺ .

المبحث الرابع

الحمد لله الذى أنقذه من النار

كان رسول الله ﷺ أحرص الناس على حياة البشرية جمعاء ، وأشفقهم عليها من سخط الله وويلات سوء العاقبة ، عمل جاهداً على استنقاذ البشرية من براثن الكفر والضيايع ، ولم يكن الخدم بمنأى عن هذا الحرص وتلك الشفقة ، إذ أنهم بشر ممن خلق الله سبحانه وتعالى ، لم يخرجهم من إنسانيتهم قلة المال أو الجاه ، ولم يرفع عنهم التكليف أنهم خدم إنما لهم حق الدعوة إلى الخير والأخذ بأيديهم إلى طريق النور ، وبين أيدينا الآن رائعة من روائع أنس رضي الله عنه تلقى الضوء على دعوة رسول الله ﷺ للخدم ، ورحمته بهم وحرصه على استنقاذهم من النار .

عن أنس رضي الله عنه قال : كان غلام يهودى يخدم النبي ﷺ فمرض فأتاه النبي ﷺ يعبده ، فقعده عند رأسه فقال له : أسلم ، فنظر الغلام إلى أبيه وهو عنده ، فقال له : أطع أبا القاسم ، فأسلم ، فخرج النبي ﷺ وهو يقول : « الحمد لله الذى أنقذه من النار » (١) .

افتقد رسول الله ﷺ الغلام اليهودى ، ليست بالرجل الكامل ، وليس بالسيد المهاب ، وليس بالمسلم الموحد . غلام يهودى خادم ، ماذا يمكن أن يكون له من حق على سيده ؟ ، فمع عظم مسئوليات رسول الله ﷺ ونقل الأعباء الملقاة على عاتقه كان من الطبيعى ألا يفتقد مثل هذا الغلام ، أما إن افتقده وعلم بمرضه فجميل منه ﷺ أن يرسل من يعبده أو يواسيه فى مرضه .

(١) البخارى ، إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه وهل يعرض الصبي للإسلام ، كتاب الكسوف .

واحة الخلق للعظيم - الرحمة - ١١٣

نعم إن هذا المريض غلام ، وخادم ، ويهودى ، ولكن من سيده ؟ ، إنه رسول الله ﷺ ، القلب الذى حمل بين حناياه البشرية جميعها بآلامها وآمالها وجموحها وجهلها ، محاولاً السير بها على طريق الرشاد ، ولهذا فإن له من السمو والتواضع ونبل الغاية ، وفيض الرحمة ما يجعله مسارعاً فى عيادة هذا الغلام مخففاً عنه آلام المرض ومحاولاً استنقاذه من آلام أشد وأدوم ، أثناء النبى ﷺ فقعد عند رأسه ، جلس منه جلسة رحمة وشفقة ، جلسة أب حان عصف ، بعيد النظر يشفق على ابنه من المرض أو الموت ، لكن إشفاقه عليه مما هو بعد الموت أعظم وأشد ، حيث إنه الخلود الأبدى ، فإما محسن منعم ، وإما مسيء يوقد به الجحيم .

لهذا دعاه رسول الله ﷺ إلى الإسلام ، أسلم أيها الغلام ، انطق شهادة الحق ، أنافع بها عنك يوم الدين ، انطقها فإنها مخرجك من الظلمات الكفر إلى نور الإيمان ، ومن غضب الرب إلى نعيم الرضوان .

وتحرك تلك الرحمة البالغة ، الفطرة الكامنة فى الغلام إلى دين الله ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الروم : ٣] .

نعم ، تحركت الفطرة التى طمستها نشأته اليهودية ، ووالده الذى هوده وأضله ، فعن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « كل إنسان تلده أمه على الفطرة وأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه ... » (١) .

وينظر الولد إلى أبيه نظرة من يودّ الخلاص ، لكنه يخشى سطوة جبار عنيد ويقرأ الرجل تلك النظرة المستعطفة الخائفة ، ولم يكن بإمكانه إزاء هذه النظرة

(١) مسلم (٤٦٠)

أن يخادع نفسه أكثر من هذا ، وهو يعرف رسول الله ﷺ كما يعرف ابنه هذا ، ويدرك تمام الإدراك إنه رسول الله ﷺ الذى يقرأ صفاته فى التوراة ليل نهار كما قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (١٤٦) [البقرة : ١٤٦] .

ولم يكن بإمكان الرجل وهو يرى رحمة رسول الله ﷺ بابنه ، أن يقسو هو عليه فى آلام مرضه ، لا مناص من أن يصدق الرجل مع نفسه ، ومع ابنه المريض فى تلك اللحظة الحرجة ، وانتصرت أبوة الرجل على يهوديته ، فقال لابنه : أطع أبا القاسم ، لحظة أبوة صادقة ، ارتفعت بالرجل عن حقه على الإسلام وعداوته للمسلمين ، وحسده لنبى الإسلام .

انتصر على عناده مع نفسه ، وكفره بالحق المبين ، انتصر الرجل على جحود الحق وكتمان العلم بماذا ؟ ، بما رآه من رحمة رسول الله ﷺ بالغلام - وهو خادمه - فلا أقل من أن يحيى هو لحظة صدق يرحم بها فلذة كبده .

أسلم الغلام ، إتبع الحق الذى طالما صده عنه ذروه ، واستضاء بنور الإيمان الذى طالما حجبه عن قلبه الغض النضير .

الحمد لله الذى أنقذه من النار ، تحميدةً فاض بها قلب رسول الله ﷺ ولهج بها لسانه ، فليبرأ الغلام إذاً أو فليمت ، فقد كان ميتاً فأحياه رسول الله ﷺ بالإسلام ، حياة أبدية السعادة ، خالدة النعيم .

أحياه بالتواضع والبذل لأجل الدعوة ، أحياه بفيض رحمته ﷺ فكان كما وصفه شوقى رحمه الله :

وأنت أحييت أجيالاً من السرم	أخوك عسى دعى ميتاً فقام له
فابعث من الجهل أو فابعث من القدم	والجهل موت فإن أوتيت معجزة

المبحث الخامس والبسه قميصه

إن رسول الله ﷺ وهو يرحم المؤمنين الأتقياء ، فإنه يرحم من هم حقيق بهم الرحمة ، ذلك أن الوشيعة التي تربط المجتمع المؤمن هي وشيعة الرحمة ، ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ﴾ [الفتح : ٢٩] .

ورحمته ﷺ بالعصاة رحمة الطبيب الحاذق بمرضاه الذين يعرف فيهم مواطن الداء فيتبعضهم بما يصلحهم من دواء .

أما رحمته ﷺ بغير المسلمين ، فهي رحمة الراعى الأمين حين يجهد نفسه فى استنقاذ القطيع الشارد ، إذا احتوشته الذئاب فيستنقذ الله به منهم من فيه خير للإسلام والمسلمين ، غير أن هناك صنف من البشر لا هم عن المؤمنين فتحق لهم الرحمة ولا هم من العصاة فتجمل بهم الرحمة ، ولا هم من الشاردين الذين ربما استنقذتهم الرحمة ، إنما هم صنف خارج دائرة الإنسانية ، ملامحهم ملامح بنى الإنسان ، ومنطقهم منطق بنى الإنسان ، حيندسون بين الناس كأنهم من بنى جلدتهم ، غير أن قلوبهم مسخت قلوب شياطين وعقولهم قد أنبتت فى مزرعة إبليس اللعين ، ذلكم هم المنافقون .

أشد أنواع المناهضين للحق خطراً على الإسلام والمسلمين ، إذ أن حربهم غير معلنة إنما هم يتسمون بأسماء المسلمين ويتكلمون بلسانهم ، يتظاهرون بالود والولاء لهم ، فلا يأبه لخطرهم أحد ، ولا يحطاط منهم عامة المسلمين ، فإذا هم سرطان فى جسم الأمة ، لا يدرك خطره إلا إذا هتك وفتك ، ولا يتدارك أمره إذ بداية ظهوره هى النهاية المأساوية ، ولهذا فقد أطلع الله سبحانه

وتعالى رسوله ﷺ على المنافقين الذين اندسوا بين صفوف المسلمين ، ليكونوا الحرب الداخلية الفاتكة حيث يشتتوا قوى المسلمين ويعملوا فكرهم الخبيث في فصم عرى الترابط بينهم ، بإلقاء الشبهات المريبة في طريقهم والشكوك الباطلة في قلوبهم ، ويكونوا الحرب الخارجية الدنسة ، بإذاعة أخبار المسلمين ، وتعرية ثغورهم وإعانة عدوهم عليهم .

من هذا الصنف البشع الخبيث عبد الله بن أبي بن سلول ، رأس النفاق وزعيم المنافقين - عليه من الله ما يستحق - ، أظهر الإسلام وأضرع الحقد والحسد والبغضاء للإسلام ، ولنبي الإسلام ولعامة المسلمين ، فلم يترك فرصة دينية يمكنه بها إيداء الإسلام دعوةً ونبياً وأتباعاً إلا استغلها أبشع استغلال ، والعجب كل العجب أن نرى رسول الله ﷺ يتفرق به المرة تلو المرة ويحلم عليه المرة تلو المرة ويعفو عنه المرة تلو المرة ، فكانت حياته كلها إساءة للإسلام من قبله وعفواً له من قبل نبي الإسلام ﷺ حتى أنه قد نال من الإسلام ومن رسول الله ﷺ ما لم ينله أعداء الإسلام مجتمعين ورسول الله يصفح ويعفو حتى قضى عدو الله وأفضى إلى ما قدم أما الأعجب أن يستمر رسول الله ﷺ على تلك الرحمة به بعد موته ، وهاكم الصورة العجيبة التي نقلها لنا جابر بن عبد الله رضی الله عنهما حيث قال : « وأتى النبي ﷺ عبد الله بن أبي بعد ما أدخل قبره فأمر به فأخرج ووضع على ركبتيه ، ونفث عليه من ريقه وألبسه قميصه والله أعلم » ^(١) .

لو لم تكن للمنافقين وصمة على مر التاريخ إلا عبد الله بن أبي بن سلول لكفتهم إلى أبد الدهر ، ذلك الأفعى الخبيث الذي ينث سمومه القاتلة بين المسلمين كلما وجد إلى ذلك سبيلاً .

(١) صحيح البخارى ، باب لبس القميص ، كتاب اللباس .

ذلك الشيطان الذى ظل يوسوس فى الصدور ويلعب بالعقول ، ويؤلب على المسلمين حتى آخر لحظات حياته القذرة ، بل أوصى بها ورثته فلا يزالون مستمسكين بميراثه العفن حتى اليوم ، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، فلو جمعت الرحمة بكل كفرة الأرض ورعديديها ، ما جمعت بهذا الشيطان اللعين ، الذى ناصب رسول الله ﷺ العداء من أول لحظة شرفت به المدينة المنورة ، ومع هذا نرى رسول الله ﷺ يأتى قبره ويأمر به فيخرج ثم يضعه على ركبتيه الشريفتين ويا نعم الواضع ويا بمس الموضوع .

أتى لهذا الرجس بتلك المكانة الرفيعة ١٩ ، ثم ينفث ﷺ من ريقه الطاهر عليه ، ثم يلبسه قميصه الشريف ، أهذه رحمته ؟ إنما هى رحمت مضيئات ، يتلأأ بعضها فى بعض ، كان لتلك الصورة الرائعة بداية لا تقل عنها رفعة وجلالاً حيث ذكر الإمام الحافظ ابن كثير - رحمه الله - ما رواه الإمام أحمد والإمام الترمذى والإمام البخارى - رحمهم الله - باختلاف يسير فى ألفاظ الروايات ، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه :

« لما توفى عبد الله بن أبى دعى رسول الله ﷺ للصلاة عليه فقام إليه ، فلما وقف عليه يريد الصلاة تحولت حتى قمت فى صدره ، فقلت : يا رسول الله أعلى عدو الله عبد الله بن أبى القائل يوم كذا وكذا ، « بعد أيامه » قال : ورسول الله ﷺ يتبسم حتى إذا أكثرت عليه قال : « أخر عني يا عمر ، إني خيرت فاخترت ، وقد قيل لى ﴿ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ ﴾ [التوبة : ٨٠] ، ولو أعلم أنى لو زدت على السبعين مرة غفر له لزدت ، قال : ثم صلى ومشى معه وقام على قبره حتى فرغ منه » .

وفى البخارى : وقال : « أخر عني يا عمر ، فلما أكثرت عليه قال : إني خيرت فاخترت ، ولو أعلم أنى إن زدت على السبعين غفر له لزدت عليها ، قال : فصلى عليه ، فما لبث إلا يسيراً حتى نزلت الآيتان من براءة

﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ ﴾ [التوبة : ٨٤] ^(١) .
 ويريد رسول الله ﷺ بقوله إني خيرت آية التوبة ﴿ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ [التوبة : ٨٠] .

بل إن رسول الله ﷺ هو أكثر من آذاه ابن سلول ونال من نفسه ، وعرضه نيلاً مغرضاً خبيثاً ، ومع هذا يغفر ويصفح ، بل ويرحم ويحسن إليه في حياته ، وحتى بعد أن أفضى إلى ما قدم ، يصلى عليه رغم اعتراض سيدنا عمر رضي الله عنه وتذكيره لرسول الله ﷺ بأيادي ابن سلول نسوداء عليه وعلى الإسلام والمسلمين ، وليست الصلاة فقط بل يجلسه على ركبتيه الشريفتين ويلبسه قميصه الطاهر المبارك ويستغفر له ، ويود لو غفر له الله ، مراعاة لشهادة التوحيد التي نطقها يوماً بلسانه أملاً في أن تكون قد لامست ولو مرة قلبه الدنس ...
 ربما ! .

ربما مراعاة لحق الصحبة التي لم يرعها ابن سلول يوماً ما ، ربما شفقة على هذا الشقى من مصيره التعس ، أو أنها رحمة بعبد الله بن عبد الله بن أبي ابن سلول رضي الله عنه ، ذلك المؤمن اصادق المجاهد ، البرئ من نفاق أبيه ، وحرية القدرة ضد الإسلام والمسلمين ، وسبحان مخرج الحي من الميت .
 ربما لأسباب فوق إدراكنا ، ففعل رسول الله ﷺ كله واسع المعنى عميق المغزى ممتد الحكمة يجد فيه كل مستزيد بغيته وزيادة .

الفصل السابع رحمته ﷻ بالحيوانات

- المبحث الأول : حبستها حتى ماتت .
- المبحث الثاني : من فجع هذه بولدها ؟ .
- المبحث الثالث : فغفر لها بذلك .
- المبحث الرابع : فشكر الله له فغفر له .

المبحث الأول حبستها حتى ماتت !!

أن يتراحم الناس فيما بينهم فتلك أخلاق إسلامية راقية لائقة بمجتمع مسلم ، أما أن تتعدى رحمة الإنسان إلى غيره من المخلوقات ، فتلك ذروة ما تصل إليه الأحاسيس البشرية من سمو وارتقاء ، ولهذا كان حرص رسول الله ﷺ على السمو بالمجتمع المؤمن إلى تلك المكانة الرائعة ، حيث لا يقتصر على التراحم فيما بينهم فحسب ، إنما يغرس في قلبه الرحمة والشفقة على كل ما حوله من مخلوقات الله ، حتى يبدو وكأنه الرحمة قد صيغت بشراً سوياً ، ذلك أن الإنسان كلما ازداد إيماناً فاض قلبه رحمة وشفقة وتفاعل مع الكون كله بكل حب وشفقة .

وهدى رسول الله ﷺ في هذا المقام مشكاة يرتوى منها الرحماء ، ويذيب فيها القساة قسوة قلوبهم - إن كانت قابلة للذوبان - وفيض عطر من تلك المشكاة الخالدة خلود الإسلام وتعاليم رسول الله ﷺ تكشف لنا حقيقة رحمته ﷺ بما دون الإنسان ، خاصة الحيوانات على اختلاف أجناسها ، ذلك أنها مخلوقات ضعيفة ، تجمل بها الرحمة والرفق .

« عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : « عذبت امرأة في هرة حبستها حتى ماتت جوعاً فدخلت فيها النار » (١) .

يالك من امرأة صخرية القلب فولاذية الأحاسيس عدوانية المشاعر ، شذت المرأة عن الطبيعة الأنثوية برقتها وحنانها وسرعة تأثرها بالمواقف ، خالفت ما فطر

(١) البخاري ، باب فضل سقى الماء ، كتاب المساقاة

الله سبحانه وتعالى عليه بنات جنسها ، من توقد العاطفة ، وتدق الحنان ، ووفرة الرحمة ، فحبست حيواناً ضعيفاً أليفاً لا حول له ولا قوة ، قطرة لا قدرة لها على التعبير اللفظي عن مدى جوعها وألمها ومرارة الظلم الواقع عليها ، غير أن صراخها الأعجمي الأبكم المستغيث ، كان كفيلاً بتفتيت القلوب الحجرية ، وتفجير ينبوع من الرحمة ، ليذيب فيه بشاعة القسوة والجبروت ، لكن قلب المرأة كان أجلد من أن يتصدع ، وأقصى من أن تدانيه الرحمة ، وحش شرس في صورة امرأة آدمية حبست القطرة الضعيفة في جوعها وضعفها وألمها وجفاف حلقها .

استعطفتها القطرة البائسة بكل وسائل الاستعطاف دون جدوى ، بكنت بلغة كادت تنطق من هول المأساة دون جدوى ! ، أطلقت صرعات الاحتجاج والثورة العارمة دون جدوى !! ، وهن الصراخ الجائع المحموم دون جدوى ، خفتت الاستغاثات شيئاً فشيئاً حتى كان الموت أرحم بالقطرة من القلب الفولاذي المريض الملتذ بعذاب الآخرين .

أنهت المرأة اللا إنسانه حياة القطرة الضعيفة المسكينة بتلك البشاعة المروعة فكانت سفيرها غير الميمون إلى النار والعذاب للمهينين ، وللجذلة من جنس العمل ، فمن لا يرحم لا يرحم ، إنه عدل الله تعالى مع قساة القلوب ، وهكذا اقتضى ميزان العدل الإلهي أن تحرم تلك المرأة القاسية الرحمة في الآخرة ، وهي الضعيفة الذليلة ، كما حرمتها حيوان ضعيف لا حول له ولا فكاك من قسوتها في الدنيا ، فالذي لا يرحم الحيوان أجدر ألا يرحم أحداً من بني جنسه ، بل ربما تمتد القسوة إلى الأقربين من أب أو أم أو ابن أو زوج ، يا لها من موعظة بليغة ووصية رفيقة ، لو وعها الإنسان لكان ينبوع رحمة وفيض حنان لمن ؟ ، لكل مخلوقات الله حتى الحيوانات ...

المبحث الثاني من فجع هذه بولدها ؟

وها هو ابن مسعود رضي الله عنه يقول : « كنا مع رسول الله ﷺ في سفر ، فانطلق لحاجته ، فرأينا حمرة معها فرخان ، فأخذنا فرخيها فجاءت الحمرة (وهي طائر صغير كالعصفور) تعرش (أى تظل بجناحيها على من تحتها) فجاء النبي ﷺ فقال : « من فجع هذه بولدها ؟ ردوا ولدها إليها » ، ورأى قرية نمل حرقناها ، فقال : « من حرق هذه ؟ » قلنا : نحن ، قال : « إنه لا ينبغي أن يعذب بالنار إلا رب النار » ^(١) .

من فجع تلك بولدها ؟ .

يرق قلب رسول الله ﷺ لأنثى طائر إذ أخذ منها صغارها ، ويأمر صحابته الكرام أن يردوا عليها صغارها ، رحمة بمشاعر الأمومة لديها ، وشفقة أن يعصف بها ألم الشكل ومرارته ، ورحمة لضعف صغارها ، وحاجتهم لحضن الأم ، وشفقة أن يعصب بهم إحساس اليتيم والضياع .

وهم ماذا ؟ طيور ، قد لا يفطن بعض الفطناء أن لهم مشاعر وأحاسيس ، ثم يألم لسرب من النمل قد أحرقه أصحابه رضى الله عنهم ؟ ، ربما لأنه قد آذاهم فى أنفسهم أو أمتعتهم ، لكنه يأبى ﷺ أن يعذب بالنار إلا رب النار ، حتى وإن كان سرب من النمل ، سرب من الحشرات !! .

صلى الله وسلم وبارك عليك يا من رحمت حمرة فجعت بولدها ؟ أو سرب من النمل قد أحرق ! ، فماذا لو رأيت ما نحن فيه من فجعية الأمهات

(١) رواه أبو داود بإسناد صحيح (رياض الصالحين برقم ١٦١٧) .

بأطفالهن صباح مساء .

أطفال قد شيب نواصيهم ظلم العدو وتبجح به ، وتنصل الصديق وسلبته .
حتى صرخت الآلام في قلبه المعنى عليها تسمع من كان له قلب أو ألقى
السمع وهو شهيد فطفقت تقول :

قطعت الليل ترحالاً	وكل الناس يقصصيني
فلا أذن تضيفني	ولا ذو القلب يأينني
لقد مُزقت أشلاء	فمن منكم يداويني
ومن للأقصى يشريه	ويشري القدس يشريني
ومن للشيوخ إذ غطى	لحاهم أعفن الطين
إذا ما العرض منتهك	ودم الحرر يكويني
فمن للطفل ذى الأحجار	من للأرض والدين
ألا فلتتركوا الأحلام	يا قومي ... أجيّبوني

وما من مجيب !!

تتألم يارسول الله من أجل طائر وحشره ، فكيف لو ترى مأساة الإنسانية ؟
كيف بك لو رأيت يد الصهيونية - التي لم تلامس قلبها يوماً رحمة أو
فضيلة - تحرق قرى البشر لا قرى النمل ، وتحصد الشعب الأعزل حتى
الأطفال الدين كتب عليهم أن يقفوا مواقف أعظم الرجال في مرحلة من
عمرهم يلعب رفقاءهم فيها باللعب ، ويننون على الشواطئ قصور من الرمال ،
أطفال تحصدهم يد الغدر والوحشية الآثمة من بين ضلوع الأمهات وأحضان
الآباء ، أطفال برءاء يدفعون حياتهم ثمناً لدفاعهم الشرعى عن حقهم في
الحياة ! ، أو تمناً لإشباع شهوة القتل والتدمير في قلب نازية القرن الواحد
والعشرين ، وإلى الله المشتكى وبه الاستعانة والإستغاثة .

المبحث الثالث فغفر لها بذلك

ولإن وجد في النساء من كان قلبها بتلك الصلادة والغلظة ، فقتلت قطة ضعيفة شر قتله بتلك القسوة والوحشية ، إذ مزقتها بخنجر الجوع ، فإن منهن من أنقذت كلباً ببلسم الرحمة وعبير الشفقة إذ أمدته بماء الحياة .

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « غُفِرَ لامرأة مومسة مرت بكلب على رأس ركي يلهث ، قال : كاد يقتله العطش فنزعت خفها فأوثقته بخمارها فنزعت له من الماء ، فغُفِرَ لها بذلك » ^(١) .

امرأة متدنية ساقطة عن إنسانيتها ، متجردة من أخص خصائص النساء ، ألا وهي العفة والطهر والفضيلة ، فما عسى الخير الذي يرجى منها ؟ ، أيمن لهدى أن يكون فيها بقية من خير ؟ ! ، أيمن لهذه أن يكون بداخلها بقايا إنسان ؟ ! .

سبحان الله ، إن بذلك القلب الجامع عن طريق الإستقامة السادر في غيه بقية من رحمة وإن توارت خلف جدران الرزيلة إلا أن صعوبة الموقف استدعتها فخرجت كالسهم المارق مختربة تلك الحواجز العفنة المتراكمة وأنقذت الكلب من الهلكة .

نعم رأت المرأة ذلك الكلب الذى هو على حيوانيته أطهر من كل الكلاب البشرية التى ترتع فى الجيف الفكرية ، والرذائل الأخلاقية ، والجرائم الوحشية ، إذ أن نجس الكلب يطهره تراب الأرض ، أما نجس الرذائل البشرية فإنه يدنس

١١) البخارى ، باب إذا وقع الذباب فى شراب أحدكم فليغمسه ، فإن فى إحدى جناحيه الداء وفى الأخرى شفاء ، كتاب بدء الخلق .

الأرض ، فيحطم الآمال وييتم الأطفال ، وينتهك الأعراف
ويبيد العزل الضعفاء ، ويفسد كل شيء حتى تراب الأرض .

رأت المرأة ذلك الكلب على صورة رهيبة بكى لها قلبها على انحطاطه
ودناء وجهته ، إذ رآته يلهث يكاد يقتله العطش ، فنزعت خفتها فأوثقته
بخمارها ، يا الله ! مومس غير أن رزيلتها لم تقو على انتزاع خمارها ، إن رزيلة
بائعات الهوى يصل أذاها إلى من قصدها أو سعى إليها ، أما رزيلة السفور فإنها
تؤذى من أراد ومن لم يرد ، مومس لم تخلع خمارها إلا ليكون وسيلة تنقذ بها
حياة حيوان أعجم ! ، لا يملك لعطشه إلا اللهاث والإستسلام لقسوته حتى
يربحه الموت من ذلك الألم البشع ، أو يجعل الله له فرجاً ومخرجاً ، فما بال
الشريفات الحسيبات العفيفات ، يلقين بخمرهن غير آبهات بسوء الصنيع ،
يفسدن الأمة ، ويفتكن بالقلوب الضعيفة العطشى ، التي يزداد لهاثها ومرضها
وفتنها بسبب العرى والسفور .

نزعت المرأة خفيها ، وأوثقته بخمارها ، فنزعت من الماء للكلب ، ما
أطفأت به جحيم عطشه ، فنبتت فيه الحياة من جديد ، وكأن الماء إذ أنبت في
الكلب نبض الحياة التي جفّ من لحظات أو كاد ، أنبت في قلب المرأة
الفضيلة ، وغسل عنها أدران الرزيلة وأوحال السقوط والإنحطاط .

رأى الله سبحانه وتعالى صنيع المرأة التي فاض رحمة بالكلب الضعيف
فكان أرحم بها وأرأف بحالها فسقاها من أنهار الجنة إذ أورثها السعادة الأبدية
هنيئاً لتلك المرأة جميل صنعها ، هنيئاً لها رحمة ربها ، هنيئاً لها المغفرة ، هنيئاً
لها الجنة .

المبحث الرابع فشكر الله له فغفر له

لم يأل رسول الله ﷺ جهداً في النصيح للأمة ، وفي إيقاظ الخير في جنبات قلبها ، والرفيف بمشاعرها في أوسع مدى وأعلى نطاق للأخلاق الفاضلة .

كان رسول الله ﷺ يحض الأمة على التراحم فيما بينها ، وعلى الرحمة لكل ما يحيط بها ، ظل يضرب للناس الأمثال تلو الأمثال ليقرب إلى أذهانهم الصورة التي يجب أن يكون عليها المؤمن الحق .

كان يقص القصص من أخبار الأمم الغابرة كوسيلة إيجابية لتربية النفس ، وغرس القيم النبيلة فيها بطريقة أليق بذكاء المؤمن الفطن وأعمق أثراً في نفسه وأدوم إعمالاً لعقله .

وبتلك الوسائل الرائعة ظل يغرس في أصحابه وفي الأمة من بعدهم مكارم الأخلاق وعلو الهمم وسمو الغايات ، شذاً ندىً لقصة رائعة أخرى من قصص رسول الله ﷺ التربوية الرفيعة الباقية الأثر إلى يوم القيامة ، تدعو إلى الرفق بالحيوان شيقه السرد نفيسة القيمة ، سريعة التأثير عميقة الأثر تؤتي ثمارها بإذن ربها في القلوب الحية الخصيبة .

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « بينا رجل بطريقة اشتد عليه العطش فوجد بئراً فنزل فيها فشرب ثم خرج ، فإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش فقال الرجل : لقد بلغ من هذا الكلب من العطش مثل الذي بلغ مني فنزل البئر فملأ خفه ماء فسقى الكلب فشكر الله له فغفر له ، قالوا يارسول الله : وإن لنا في البهائم أجراً ، فقال : في كل ذات كبد

رطبة أجراً « (١) .

يا لجلال الصور وروعها ، روجل بطريق اشتد عليه العطش ، ما أشد قسوة العطش حين افتقاد الماء ، وما أشد قسوة الطريق حين افتقاد الرفيق والأسوأ من هذا إذا اجتمعت شدة العطش ومشقة السفر وإحساس الغربة وافتقاد الرفقة ، اشتد العطش على الرجل بكل معانيه ، بجفاف الحلق وبلوغ الجهد وارتعاد القلب ارتعادة من يرى شبح الموت دون بلوغ القصد وشوقه إلى الأهل والولد شوقه إلى سر الحياة المفتقد في صحراء الموت .

قاسى الرجل هول الموقف وشدة الصراع بين حب الحياة وخوف الموت وفى ذلك الوقت العصيب ترقق ينبوع الرحمة من قلب طريق الموت ، فإذا به نبع الحياة للقلب الظامى والحلق الجاف والخلايا الذابلة ، رحمة الله الغامرة حين تنقطع الأسباب ولا تنفع الحيل ويلوذ الإنسان من عجزه وضعفه بحول الله وقوته ، وجد الرجل بئراً فنزل فيها فشرب ثم خرج فإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش فلا يزداد به إلا عطشاً وجفافاً ، فقال الرجل : لقد بلغ من هذا الكلب من العطش مثل الذى بلغ منى .

ما أروع المواقف الصعبة المبررة إذا أكسبت الإنسان الإحساس بكل شيء حوله إذ حين يحيها بمعاناتها وآلامها تجعله من الرقة والإيجابية بحيث يستشعر مآسى الآخرين من نبراتهم ويقرأها على صفحات وجوههم فيحاول تخفيفها عنهم بقدر المستطاع ، ولهذا كانت روعة حكمة الصيام فى تربية النفوس والقلوب ، وترويض الطباع المستأسدة فى الإنسان ، وتهذيب الرغبات إذ جوعك وأنت صائم يربى فيك الإحساس بآلام الجوعى ومعاناة المحرومين ، وعطشك

(١) البخارى ، باب رحمة الناس والبهائم ، كتاب الأدب .

وأنت صائم يربى فيك الإحساس بالعطشى بأى أنواع العطش مادي كان أو معنوي ، يا لها من تربية إيمانية رائعة لمن وقف على حقيقتها ووعى معانيها .

الرجل منذ قليل كان يعاني قسوة العطش ومرارة الإحساس به لولا أن تداركته رحمة ربه تبارك وتعالى فإذا به يحس نفس المعاناة فى ماذا ؟ كلب ! ، ولم لا وهو حيوان يشترك مع الإنسان فى مطالبه البيولوجية ويسمى للحصول عليها ويألم لنقصها ويفقد الحياة أو يكاد لفقدائها ، ولم يملك رجل ربه مرارة التجربة إلا أن ينزل البئر ويملاً خفه فيسقى الكلب رحمة من مخلوق استوجبت رحمة الخالق سبحانه وتعالى .

ما أقل العمل على عظيم معانيه ، وما أعظم الجزاء إذ المجازى هو الله تبارك وتعالى ، دهش الصحابة الكرام من عظم أجر الرجل ، فاستدعت دهشتهم سؤالاً كان لابد أن يثمره ذلك الموقف الجليل فقالوا : يا رسول الله ، وإن لنا فى البهائم أجراً ؟ ، فقال : فى كل ذات كبد رطبة أجر .

بل إن رحمته ﷺ قد احتضنت الحيوان حتى وهو يذبح حيث قال : « إن الله كتب الإحسان على كل شيء ، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة ، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة وليحد أحدكم شفرته ، وليرح ذبيحته » ^(١) ، وكذلك أوصى ألا تذبح شاه أمام شاه أخرى حتى لا يملكها الرعب ، فباحسرتاه كم من السنن صيغت فكان نتيجة ذلك الشقاء الذى عم بإحلال البدع المقيته بدل السنن المعطلة .

إن الإنسان الرحيم لا تقتصر رحمته على بنى الإنسان فقط ، ولا على البهائم وحسب إنما تشمل كل ذات كبد رطبة تحقيقاً لمعنى الإنسانية ودورها

فِي الْأَرْضِ ، وَابْتِغَاءً لِلْأَجْرِ وَالْمَثُوبَةِ مِنْ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ، إِنَّهَا الرَّحْمَةُ فِي أَنْقَى صُورِهَا ، وَفِي أَوْسَعِ مَدَاهَا ، وَأَرْوَعَ مَعَانِيهَا ، غَرَسَهَا نَبِيُّ الرَّحْمَةِ ﷺ فِي الْقُلُوبِ الْحَيَّةِ الْخَصِيبَةِ ، فَأَنْبَتَتْ حَيَاةً رَائِعَةً لَيْسَتْ حِكْرًا عَلَى الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ، وَإِنَّمَا سَتَظِلُّ تَنْبَتُ فِي كُلِّ قَلْبٍ حَيٍّ خَصِيبٍ إِلَى أَنْ يَرِثَ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا .



الفصل الثامن رحمته ﷺ بالجَمَادِ

- المبحث الأول : فجعلت ثن أنين الصبي .
- المبحث الثاني : هذا جبل يحبنا ونحبه .

المبحث الأول فجعلت ثن أنين الصبى

رحمةً بالجمادات ! لماذا ؟ وكيف ؟ .

ما أعظم رحمة رسول الله ﷺ وهو يحث على رحمة كل ذات كبد رطبة لما لها من حق الحياة التى منحه الله سبحانه وتعالى إياها ، وما أروع رحمته ﷺ وهو يوصى بعدم قطع الشجر ، بل ويبشر زارعه ومتعهده بالسفيا والرعاية ، حيث جعل الله سبحانه وتعالى فيه منافع للناس إذ يمنحهم الظل والثمر والعبير والجمال والصحة بتجديد الهواء وتخفيف حدة الملوثات ، لهذا ولغير هذا الكثير مما يعود على الإنسان بالمنفعة كان لتلك المخلوقات حق الرعاية والبقاء غير أن أعظم الأسباب الدافعة إلى هذا التعهد وتلك الرعاية أن هذا الشجر مخلوق وهبه الله القادر حق الحياة ، فلا ينبغى لنا ونحن مثله مخلوقات الله أن نسلبه هذه الحياة ، بل نحيطه بالرعاية ونتعهده بالرحمة .

أما إذا أصبحت الشجرة جذعاً يابساً لا ظل ولا ثمر له ولا حياة ، فما عسى أن يكون له من حق علينا ؟ ، وهل يمكن أن يكون لذلك الجزع مشاعر وأحاسيس وردود أفعال ؟ وإن وجدت فهل له قدرة على التعبير عن تلك الأحاسيس وإبداء البرضى أو السخط أو الاحتجاج ؟ .

أسئلة ربما يدخلها البعض تحت طائلة الهراء الذى لا معنى له ولا قيمة ، ويحكم عليها العقلاء بأنها أسئلة ربما لها إجابات لم يكتشفها العلم بعد ، وربما اكتشفت يوماً ما ، أما الباحث الغواص فى بحر السنة المطهرة ، يجد الجواب فى أحاديث كثيرة للمصطفى العظيم ﷺ ، ومعنا منها لؤلؤة رائعة أهدانا إياها جابر بن عبد الله رضى الله عنهما تحكى روائع البيان ، وتشر عبيرها

على القلوب ، ونغمها على الآذان .

« عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما أن امرأة من الأنصار قالت لرسول الله ﷺ : يا رسول الله ، ألا أجعل لك شيئاً تقعد عليه ؟ فإن لى غلاماً نجاراً قال : إن شئت ، فعملت له المنبر ، فلما كان يوم الجمعة قعد النبي ﷺ على المنبر الذى صنع ، فصاحت النخلة التى كان يخطب عندها حتى كادت أن تنشق فنزل النبي ﷺ حتى أخذها وضمها إليه فجعلت تن أنين الصبى الذى يسكن حتى استقرت » ^(١) .

سبحان من له الإبداع المطلق .. سبحان من له العلم المطلق .. سبحان من له القدرة المطلقة ، جذع نخلة يابس لا نضارة فيه ولا حياة ، حباه الله تباركت آياته خلوداً حيا فى قلوب الأمة على مر العصور والأزمان ، لشرافته برسول الله ﷺ - وهو خشب يابس - فما الظن بالصحابة الكرام الأطهار - عليهم من الله الرضا والرضوان - ، جزع نخله اتخذه رسول الله ﷺ فى مسجده المبارك ، ليبلغ للأمة من فوقه دعوة ربه فكان الذكر للجذع حياة ، وكان قرب رسول الله ﷺ للجذع حياة ، وكان وجوده فى المسجد النبوى الشريف حياة .

حياة أكسبت الجذع مشاعر فياضة ، وسعادة منقطعة النظير ، لكنها انقلبت مرارة ولوعة وأينا حين تحولت تلك السعادة إلى المنبر الذى اتخذه الرسول للجذع بديلاً ، ففاضت مشاعر الجذع حسرة وألماً وانطلقت المرارة صيحة أم تكللى ، فقدت وحيدتها فى أحوج ما تكون إليه حين نضب النبع وبيس العظم ، واحدودب الظهر وجف ينبوع الحياة ، صاحت النخلة حتى كادت تنشق من هول ما قاست من فراق رسول الله ﷺ جذع يحزن ويتألم

(١) البخارى ، باب النجار ، كتاب البيوع .

ويصبح وينفطر إنفطاراً ؟ .

وما الغرابة في هذا إن كان من أجل رسول الله ﷺ ؟ ، إن المؤمن قد علمه إيمانه أن لكل مخلوق من مخلوقات الله حياة وإدراك ومشاعر ، بصورة تقترب أو تباعد عن إدراك الإنسان وشعوره ، ولكنها موجودة حتى في الجمادات ذلك أننا نؤمن بقول الله تبارك وتعالى وصدق الله القائل : ﴿ تَسْبِيحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ [الإسراء : ٤٤] .

كل شيء يقر بوجود الله تقدست ذاته حتى الجمادات قد أدركت أن لها رباً خالقاً فعبدته وسبحت بحمده وقدست له إلا كفره الإنس والجن جحدوا وظلموا فحق عليهم العذاب بما كسبت أيديهم الآثمة ، وقلوبهم الصدئة ، ولهذا فحجر أصم ملقاً بفلاة الأرض أفضل في ميزان الله من كل كفره الأرض ومشركيها وإن ارتقوا ذروة المناصب الدنيوية وذاع صيتهم شرقاً وغرباً ﴿ إِنَّهُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ [الفرقان : ٤٤] .

نعم ، إن للجماد عالمه الخاص ، وأحاسيسه التي يجهلها الإنسان لقلة علمه وقصور إدراكه غير أن الله سبحانه وتعالى قد أطلعنا على شيء من هذا العالم المغيب عن إدراكنا بقوله عز من قائل : ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ ﴾ [الدخان : ٢٩] ، السماء والأرض تحزن وتئن وتبكي بأحيائها وجماداتها وذرات ثراها إذ تفتقد بفقد المؤمن صلاته وتسبيحه وخطاه إلى الخير ومرضاة الرب .

أما الظالمين المتعالمين المتجبرين من كفره الإنس والجن تستريح بموتهم من ظلمهم وبغيهم إذ كانت تنوء بثقل بغيهم .

مشاعر لا ندركها نعم وإنما نؤمن بها إيماننا بمبلغنا إياها ﷻ ، كان

حقيق بالجدع إذا أن يصيح فرقا لهجره رسول الله ﷺ إياه إلى المنبر ولا غرابه في هذا ولا غرابة أيضاً أن يسمع صياح الجذع كل من في المسجد لأنه ليس جزعاً على مؤمن عادي ، إنما هو رسول الله ﷺ فكان التعبير بقدر الألم .

صاح الجزع حتى كاد أن ينشق ، وحق له أن يصيح وحق له أن ينشق شوقاً للنبي ﷺ ، وخوفاً أن يكون رسول الله ﷺ قد وجد عليه ، لشيء ما ، وألماً ألا يشرف بعد بكونه منارة تبليغ الدعوة ، ومرتقى رسول الله ﷺ وجدعاً ألا ييث من فوقه الأمة مقتضيات رسالة التوحيد .

أشفق رسول الله ﷺ على الجزع المتصدع ، فنزل إليه فاحتضنه احتضان أم رحيمة حنون لطفلها الملتاع الحزين فسكن من ألمه وهدأ من روعه وأمنه بعد الخوف والإلتياح .

ما أسعدك وما أكرم أيها الجذع الموفور الكرامة ، أي رحمة تلك التي احتوت كل مخلوقات الله حتى الجمادات ؟ ، واحتضنت كل حزاني العالم حتى الجذع اليابس ، وأثرت كل المشاعر النظيفة في وجدان الأمة ، واحترمت كل المشاعر المنبعثة حتى من الجمادات ؟ ، إنها الرحمة المهدهة ، إنه محمد رسول الله ﷺ ، ما أحوج الأمة إلى الإهداء بهديه القويم ، والتخلق بأخلاقه الفاضله ﷺ .

هكذا علمنا ﷺ كيف نحترم مشاعر كل ما حولنا حتى الجمادات ، هكذا علمنا كيف تكون شفافية الإحساس ونوارية الإدراك .

المبحث الثاني هذا جبل يحبنا ونحبه

لقد علمنا رسول الله ﷺ كيف نرتقى بملكاتنا فنرى بالقلوب ولا تراه العيون ، ونسمع بالعقول ما لا تسمعه الآذان ، ونلمس بالوجدان ما لا تلمسه الأيدي ، ونتذوق بالمشاعر ما لا يتذوقه اللسان ، هكذا علمنا ﷺ أن طينية الإنسان ما هي إلا وعاء ، مجرد وعاء أما قيمته الحقيقية ففيما يضمه الإناء .

لهذا فقد كان رسول الله ﷺ يحيى في الأمة المشاعر السامية ويغرس فيها القيم العالية ويربطها بروابط الألفة والمحبة مع كل ما حولها ومن حولها من موجودات وها هو أنس بن مالك رضي الله عنه يقول : خرجت مع رسول الله ﷺ إلى خيبر أخذمه ، فلما قدم النبي ﷺ راجعا وبدا له أحد قال : « هذا جبل يحبنا ونحبه » ^(١) .

ما أروع أن يتناغم الكون كله فيعزف أنشودة محبة وريبع حياة ، ما أروع أن يرتبط الإنسان بمشاعر الصفاء والود والألفة ، ويتبادلها مع كل مخلوقات الله .

إن الشمائل إن رقت يكاد بها يغرى الجماد ويغرى كل ذى نسم ^(٢)
فما أروع أن يفيض الإنسان محبة ورحمة وحناناً على الكون ويستشعر منه نفس الحب وينعم منه بالرحمة والحنان ، حينها ، وحينها فقط يصبح حقاً إنسان .

ما أحوج الأمة أن تستيقظ مشاعرها أن تستيقظ الرحمة في قلوب المؤمنين

(١) البخاري ، دار فصل الخدمة في العرو ، كتاب الجهاد والسير

(٢) سنن أبي

لا من أجل أن تحتضن الجمادات وتسكن من آلامها ، فالبون بيننا وبين تلك
 المنزل شابع والبعد عظيم إنما من أجل أن تحتضن قلوبنا آلام الأمة .
 من أجل أن تحتضن مشاعرنا أحزان الأمة .
 من أجل أن تضمد عقولنا جراحات الأمة .
 من أجل أن يحقن إيماننا دماء الأمة النازفة صباح مساء .
 من أجل أن يحفظ إيماننا كرامة الأمة المهذرة ليل نهار .



الفصل التاسع

- أ - ثمرة التربية النبوية .
- ب - رحماء في مدرسة الرسول ﷺ .
- المبحث الأول : لا تعجلوا صبيانكم عن الفطام .
- المبحث الثاني : لا تسبوه ولا تضربوه ، وإنما عظه وبصروه .
- المبحث الثالث : ما كنت لأفعل ذلك .
- المبحث الرابع : أقرؤا الفسطاط حتى تطير فراخها .
- المبحث الخامس : فضمه إلى نفسه .
- المبحث السادس : يا ابن أخى : إن لى إليك حاجة .

أ - ثمرة التربية النبوية

عاش رسول الله ﷺ بين أصحابه قرآناً حياً نابضاً ، سُورُهُ منهج حياة ، آيَاتُهُ أخلاق فاعلة وقيم متحركة عاملة ، وحروفه نور يخط في وجه الزمان أكمل صورة لأعظم إنسان ، صورة حقيقية ليست نتاج أمنية قلب أرهقته الإخفاقات والأحزان ، ولا حلم فكر أتعبته النقائص والمتناقضات ، ولا إبداعات ريشه تهيم في عالم الأماني والمثاليات ، إنما تلك « الصورة المتكاملة ، وجدت بالفعل في واقع الأرض متمثلة في رسول الله ﷺ ، ومحمد رسول الله ﷺ بشر يحمل كل طبائع البشر ، ولا نقصد بذلك أن أحداً من البشر ، سيصل به التهذيب في حدود أنه بشر ، وأنه إذا استحال على الناس أن يصلوا إلى تلك القمة التي لم يصل إليها أحد في تاريخ البشرية كله من الأنبياء وغير الأنبياء ، فإنهم بالأسوة الحسنة في شخصه ﷺ يستطيعون - في بعض جوانبه على الأقل - وفي حدود ما وهب الله لهم من طاقة أن يقتربوا من هذه القمة الشامخة درجات من الاقتراب ، وهذا هو المستوى الأعلى الذي تحقق فعلاً على نطاق غير ضيق في أشخاص الصحابة والتابعين ، وفي أشخاص متناثرين على مدار التاريخ .

وإذاً فهذا المستوى الأعلى ممكن في هذه الحدود ، وكل درجة يقتربها الإنسان من هذه القمة الشامخة فهي عظمة تحسب له في ميزان الله وميزان البشر على السواء .

كل قوة في الحق ، كل تضحية في سبيل الله ، كل صدق وأمانة وإخلاص واستقامه كل رحمة شفيفة ، كل مودة وحب ، كل عمل للخير ، كل حبٍ مرهف وسلوك مهذب ، كل قوة حيوية دافعة ، كلها ما دامت مخلصاً لله تحسب في ميزان العظمة ويكتب لها البقاء ، وتلك ثمرة التربية في

واقع الأرض .

وفي التاريخ أمثله لا تعد لهذه العظومات النفسية التي ربّاهها الإسلام ، كانت أبرزها تلك الفترة التي انطلقت فيها الأمة الإسلامية الناشئة المصنوعة على عين الله ورعاية رسوله ، تعمل في كل ميدان ، وتكتب العظومات في كل صفحة من صفحات الحياة ، ثم قلت النماذج شيئاً فشيئاً ، ولكنها لم تنقطع قط عن الوجود في كل صحوة من إغفائه وفي كل هبة من انتكاسه أولئك الذين حققوا المثال ، حققوه بقدر ما وهب الله لهم من طاقة وبقدر ما استطاعوا أن يبذلوا من جهود » (١) .

تصوغ بين الورى روحاً وريحاناً	خلفت جيلاً من الأصحاب سيرتهم
كانت سياستهم عدلاً وإحساناً	كانت فتوحاتهم برأ ومرحمة
بل أشبعوا الدين محراباً وميداناً (٢)	لم يعرفوا الدين أوراداً ومسبحة



(١) منهج التربية الإسلامية .

(٢) شوقي

ب - رحماء فى مدرسة رسول الله ﷺ

المبحث الأول : لا تعجلوا صبيانكم عن الفطام :

عن ابن عمر قال : قدمت المدينة رفقة من التجار فنزلوا المصلى فقال عمر لعبد الرحمن : هل لك أن تحرسهم الليلة من السرقة ؟ فباتا يحرسانهم ويصليان ما كتب الله لهما ، فسمع عمر بكاء صبي فتوجه نحوه فقال لأمه : اتقى الله وأحسنى إلى صبيك ، ثم عاد إلى مكانه فسمع بكاء فعاد إلى أمه فقال لها مثل ذلك ، ثم عاد إلى مكانه ، فلما كان من آخر الليل سمع بكاء فأتى أمه فقال لها : ويحك إنى لأراك أم سوء ، ما لى أرى ابنك لا يقر منذ الليلة ؟ ، قالت : يا عبد الله ، قد أبرمتنى منذ الليلة ، إنى أريغه على الفطام فيأبى ، قال : ولم ؟ قالت : لأن عمر لا يفرض إلا للفطام ، قال : وكم له ؟ قالت : كذا وكذا شهراً ، قال : ويحك لا تعجليه ، فصلى الفجر وما يستبين الناس قراءته من غلبة البكاء ، فلما سلم قال : يا بؤساً لعمر ، كم قتل من أولاد المسلمين ثم أمر منادياً فنادى أن لا تعجلوا صبيانكم عن الفطام ، فإننا نفرض لكل مولود فى الإسلام وكتب بذلك إلى الآفاق .

المبحث الثانى : لا تسبوه ولا تضربوه وإنما عظوه وبصروه :

طفق أبو الدرداء يؤم مجالس الناس فى « دمشق » ويطوف بأسواقهم فيجيب السائل ويعلم الجاهل ، وبنه الغافل ، مغتتماً كل فرصة مستفيداً من كل مناسبة ، فها هو ذا يمر بجماعة قد تجمهروا على رجل وجعلوا يضربونه ويشتمونه فأقبل عليهم وقال : ما الخبر ؟ فقالوا : رجل وقع على ذنب كبير ، فقال : أرايتم لو وقع فى بئر أفلم تكونوا تستخرجونه منه ؟ قالوا : بلى ، قال : لا تسبوه ولا تضربوه وإنما عظوه وبصروه واحمدوا الله الذى عافاكم من الوقوع

فى ذنبه ؟ قالوا : أفلا نبغضه ؟ قال : إنما أبغض فعله فإذا تركه فهو أخى ، فأخذ الرجل ينتحب ويعلن توبته

وفى أثناء إقامة أبى الدرداء بدمشق بعث إليه واليها معاوية بن أبى سفيان يخطب ابنته الدرداء لابنه يزيد ، فأبى أن يزوجه لها وأعطاها لشاب من عامة المسلمين رضى دينه وخلقه ، فسار ذلك إلى الناس وجعلوا يقولون : خطب يزيد بن معاوية بنت أبى الدرداء فرده أبوها وزوجه لرجل من عامة المسلمين ، فسأله سائل عن سبب ذلك فقال : إنما تحريت فيما صنعتته صلاح أمر الدرداء فقال : وكيف ؟ فقال : ما ظنكم بالدرداء إذا قام بين يديها العبيد يخدمونها ووجدت نفسها فى قصور يخطف لألاءها البصر ، أين يصبح دينها يومئذ ؟^(١) .

يا لها من رحمة لا يدركها إلا الراجمون الصادقون الفطناء .

المبحث الثالث : ما كنت لأفعل ذلك :

وهذا خبيب بن عدى رضي الله عنه قد وقع بيد الغدر أسيراً « فابتاع بنو الحارث بن عامر بن نوفل خبيباً وكان خبيب هو قتل الحارث بن عامر يوم بدر فلبث عندهم أسيراً حتى أجمعوا على قتله ، فاستعار من بعض بنات الحارس موسى يستحذ بها فأعارته ، فدرج بنى لها وهى غافلة حتى أتاه فوجدته مجلسه على فخذه والموس بيده. قالت : ففزعت فزعة عرفها خبيب فقال : أتخشين أن أقتله ؟ ما كنت لأفعل ذلك ، قالت : والله ما رأيت أسيراً قط خيراً من خبيب »^(٢) .

وكان يمكن لخبيب رضي الله عنه أن يقتل الطفل انتقاماً من أهله إذ هو مقتول لا محالة ، كان يمكن له أن يأخذه رهينة يستنقذ بها حياته من بين أيديهم لكنها الرحمة قد حالت بينه وبين مجرد فكرة أن يأخذ طفل برئ بجريمة أهله ، إنها

(١) صور من حياة الصحابة

(٢) المصدر السابق

الرحمة التي غرس رسول الله ﷺ بذورها في قلوب صحابته الكرام ، فأنبتت وأورقت حتى استظل بها كرام التابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

المبحث الرابع : أقرأوا الفسطاط حتى تطير فراخها :

« على فسطاط الأمير يمامة جائمة تحتضن بيضها

الشمس والقمر والنجوم ، كلها أصغر في عينيها من هذا البيض

أيها اليمامة : لم تعرفي الأمير وترك لك فسطاطه

على فسطاط . أمير يمامة جائمة تحتضن بيضها

يمامه سعيدة ستكون في التاريخ كهدهد سليمان

نسب الهدهد إلى سليمان ، وستنسب اليمامة إلى عمرو » (١) .

أبيات رقيقة مترجمة عن اللغة المصرية القديمة « القبطية » روتها للتاريخ أرمانوسه ابنة المقوقس ملك مصر ، فما قصة تلك الأبيات التي تنساب رقة ورحمة ؟ .

أشرقت شمس الحقيقة وجمالها على الكنانة حين أراد الله سبحانه وتعالى بها الخير ، فأهداها نور الحق على يد عمرو بن العاص رضى الله عنه ، حيث أتى يحمل إليها روعة الإسلام بعدله ورحمته ويدفع عنها قهر الروم بظلمهم وعشمهم وقسوتهم .

وبنى عمرو رضى الله عنه فسطاط « خيمة » ليتخذها مقراً لإقامته ومركزاً لقيادة جنده الأطهار .

وفر الروم إلى الأسكندرية فرار الظلام المقيت أمام النور لماهر الصبوح ، حينها سار عمرو بجنوده إلى الأسكندرية ملاحقاً الروم وأمر بهدم الفسطاط

(١) وحى القلم « م ١ » مصطفى صادق الرافعي

«وشاع الخبر أنه لما أمر بفسطاطه أن يقوض أصابوا يمامة قد باضت في أعلاه فأخبروه فقال : قد شحرت في جوارنا ، أقرروا الفسطاط حتى تطير فراخها ، فأقروه » ^(١) .

إنها الرحمة في قلب ربه نبي الرحمة ﷺ ، قد أبقت فسطاطاً عظيماً لأجل يمامة وبیضها !! .

فلك الله أيها الأقصى الحزين ، وقد كبلتك الأنفى المقيتة ، التى تبتلع فى وحشية شيطانية أفرحك الزغب المفزعين .

لك الله حين لا عمرو لك .

ولك الله حين لا عمر لك .

ولك الله حين لا صلاح الدين لك .

لك الله ، فهو لا يعجزه سبحانه أن ينبت لك ألف عُمِرٍ وألف عَمِرٍ وألف صلاح الدين .

المبحث الخامس : فضمه إلى نفسه :

قال محمد بن زكريا الغلاب شهدت عبد الله بن محمد بن عائشة ليلة وقد خرج إلى المسجد بعد المغرب يريد منزله وإذا فى طريقه غلام من قریش وقد قبض على امرأة فجذبها فاستغاثت فاجتمع الناس عليه يضربون فنظر إليه ابن عائشة فعرفه فقال للناس : تنحوا عن ابن أخى ، ثم قال : إليّ يا ابن أخى فاستحى الغلام فجاء إليه فضمه إلى نفسه ؟ ثم قال له : امض معى ، فمضى معه حتى صار إلى منزله ، فأدخله الدار ووال لبعض غلمانه : بيته عندك فإذا

أفاق من سكره فأعلمه بما كان منه ولا تدعه ينصرف حتى تأتيني به ، فلما أفاق ذكر له ما جرى فاستحيا منه وبكى ، وهم بالإنصراف فقال الغلام : قد أمر أن تأتية ، فأدخله عليه فقال له : أما استحييت لنفسك ؟ أما استحييت لشرفك ؟ أما ترى من ولدك ؟ فاتق الله وانزع عما أنت فيه ، فبكى الغلام منكساً رأساً ثم رفع رأسه وقال : عاهدت الله تعالى عهداً يسألني عنه يوم القيامة : أنى لا أعود لشرب النبيذ ولا لشيء مما كنت فيه وأنا تائب فقال : ادن منى ، فقبل رأسه وقال : أحسنت يا بنى فكان الغلام بعد ذلك يلزمه ويكتب عنه الحديث وكان ذلك ببركة رفقته ^(١) .

المبحث السادس : يا ابن أخى : إن لى إليك حاجة :

صلة بن أشيم رحمة الله تابعى جليل عابد زاهد راهب بالليل فازس بالنهار « لا يدع سائحة من سوانح الموعظة والتذكير إلا اغتنمها وكان أسلوبه فى ذلك أن يدعو إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة ، فيستميل النفوس النافرة ، ويستلين القلوب القاسية ... من ذلك أنه كان يمضى ذات نهار فى ثلة من أصحابه إلى غاية لهم فمر بهم شاب رائع الشباب ، ريان الصبا ، قد أطال إزاره حتى جعل يجره على الأرض جر الخيلاء ، فهم أصحابه بالشاب ، وأرادوا أن يأخذوه بالسنتهم وأيديهم ، أخذوا شديداً ، فقال لهم صلة : دعونى أكفكم أمره ، ثم أقبل على الشاب وقال فى رفق الأب الشفيق ونبرة الصديق الحميم : يا بن أخى ، إن لى إليك حاجة فتوقف الفتى وقال : وما هي يا عم ؟ فقال : أن ترفع إزارك فإن ذلك أنقى لشوبك وأتقى لربك ، وأدنى لسنة نبيك ، فقال الفتى فى خجل : نعم ونعمة عين ، ثم بادر ورفع إزاره ، فقال صلة

لأصحابه : إن هذا أمثل مما أردتم ولو أنكم ضاربتموه وشاتمتموه لضاربكم وشاتمكم وأبقى إزاره مسدلاً يمسح به الأرض « (١) .

إنها دعوة مخلصه صادقة لتخلق دعاة الحق وهذه الركب بالرحمة والرفق واللين وإنها لمن مقومات الداعية الصادقة الأمين .



الفهرس

رقم الصفحة

٥ المقدمة .
١١ الباب الأول ، الرحمة .
١٤ [أ] بين يدي الكتاب .
٢٢ الفصل الأول : رحمته ﷺ بالرجال .
٢٢ المبحث الأول : فأقامني وعرف الذي بي .
 المبحث الثاني : فظن أنا قد اشتقنا أهلنا ... وكان رفيقا
٢٥ رحيماً .
٢٨ المبحث الثالث : ففيهما فجاهد .
٣١ المبحث الرابع : كيف حال سعد بن عبادة ؟ .
٣٥ الفصل الثاني : رحمته ﷺ بالنساء .
٣٦ المبحث الأول : رفقا بالقوارير .
٤٠ المبحث الثاني : فهو خير لكما من خادم .
٤٥ المبحث الثالث : وأى خير فى العيش بعده .
٤٨ المبحث الرابع : فوعدهن يوماً لقيهن فيه .
٥٣ الفصل الثالث : رحمته ﷺ العصاة .
٥٤ المبحث الأول : أطعمه أهلك ... أطعمه أهلك .
٦٠ المبحث الثاني : لا تكونوا عون الشيطان على أخيك .
٦٤ المبحث الثالث : أتشفع فى خد من حدود الله ! .

- ٦٨ الفصل الرابع : رحمته ﷺ بالأطفال .
- ٦٩ المبحث الأول : من لا يرحم لا يُرحم .
- ٧٤ المبحث الثانى : اللهم ارحمهما فإنى أرحمهما .
- ٧٨ المبحث الثالث : فجعل يمسح خدى أحدهم .
- ٨٠ المبحث الرابع : فأسمع بكاء الصبى فأتجوز فى صلاتى .
- ٨٣ الفصل الخامس : رحمته ﷺ بالخدم والعبيد .
- ٨٤ المبحث الأول : إخوانكم خولكم .
- ٩٠ المبحث الثانى : فإنه ولى علاجه .
- ٩٣ المبحث الثالث : اعلم أبا مسعود .
- ٩٦ المبحث الرابع : اللهم أكثر ماله وولده .
- ٩٩ الفصل السادس : رحمته ﷺ بغير المسلمين .
- ١٠٠ المبحث الأول : إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين .
- ١٠٦ المبحث الثانى : أطلقوا ثمامة .
- ١٠٩ المبحث الثالث : نعم صلى أمك .
- ١١٢ المبحث الرابع : الحمد لله الذى أنقذه من النار .
- ١١٥ المبحث الخامس : وألبسه قميصه .
- ١١٩ الفصل السابع : رحمته ﷺ بالحيوانات .
- ١٢٠ المبحث الأول : حبستها حتى ماتت .
- ١٢٢ المبحث الثانى : من فجع هذه بولدها ؟ .
- ١٢٤ المبحث الثالث : فغفر لها بذلك .
- ١٢٦ المبحث الرابع : فشكر الله لها فغفر له .

- ١٣٠ الفصل الثامن : رحمته ﷺ بالجماة
- ١٣١ المبحث الأول : فجعلت ثمن أنين الصبي .
- ١٣٥ المبحث الثاني : هذا جبل يحبنا ونحبه .
- ١٣٧ الفصل التاسع : رحماء في مدرسة الرسول ﷺ .
- ١٣٨ [أ] ثمرة التربية النبوية .
- ١٤٠ [ب] رحماء في مدرسة الرسول ﷺ .
- ١٤٠ المبحث الأول : لا تعجلوا صبيانكم عن الفطام .
- المبحث الثاني : لا تسبوه ولا تضربوه ، وإنما عظوه
- ١٤٠ وبصروه .
- ١٤١ المبحث الثالث : ملائكت لأفعل ذلك .
- ١٤٢ المبحث الرابع : أقرأوا القسطاط حتى تطير فراخها .
- ١٤٣ المبحث الخامس : فضمه إلى نفسه .
- ١٤٤ المبحث السادس : يا ابن أخي : إن لي إليك حاجة .
- ١٤٦ الفهرس .

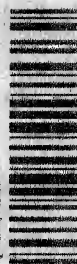


من أحدث إصداراتنا مجموعة

وآية الخلق العظيمة



Bibliotheca Alevitina



0299158

63

دار الأيمان
للطباعة والنشر والتوزيع
١٧ شارع خليل الخياط - مدينتي كامل - إسكندرية
تليفون وفاكس: ٥٤٥٧٦٩٠ - تليفون: ٥٤٤٦٤٩٦٠

E-mail: dar_aleman@hotmail.com